خيسوس مارتشامالو غارثيا



# أن تلمس الكتب

ترجمة

مارك جمال

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
الكتابة عن الكتابة

# خيسوس مارتشامالو غارثيا

# أن تلمس الكتب

ترجمها عن الإسبانية

**مارك جمال**






DIRECCIÓN GENERAL
DEL LIBRO
Y FOMENTO DE LA LECTURA

**Esta obra ha sido publicada con una subvención del Ministerio de Cultura y Deporte de España**

**نُشِر هذا العمل بدعم من وزارة الثقافة والرياضة الإسبانية**



تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com    takweenkw

takween_publishing    TakweenPH

www.takweenkw.com

# مقدمة الترجمة إلى العربية
## بقلم المُؤلِّف

لبعض الكتب أساطير، وبعضها بلا أساطير، هكذا أقول أحيانًا. أما هذا الكتاب، فلا شكَ في أنه ينتمي إلى الفئة الأولى. في عام ٢٠٢٤، يحتفل «أن تلمس الكتب» بمرور عشرين عامًا منذ أن صدر لأول مرة عن دار نشر صغيرة رائعة تابعة لـ «مركز المُعلِّمين»، ضمَّت إلى قائمة إصداراتها هذا العمل الذي كان في أول الأمر محاضرةً ألقيتُها أمام جمعٍ من المُعلِّمين.

وعلى مدى الأعوام العشرين الماضية، صدر «أن تلمس الكتب» سبع مرات أخرى، مُصحَّحًا ومُنقَّحًا ومُزَوَّدًا، عن مختلف دور النشر وفي مختلف البلدان وبمختلف اللغات. والآن يصدر في هذه الطبعة العربية، الأمر الذي يسعدني سعادةً جارفة. إنها مسيرة تستحقِ الثناء لكتاب صغير كهذا.

يخطر في ذهني أول ما يخطر الشعورُ بالامتنان: للناشرين الذين آمنوا بالكتاب، ولبائعات الكتب وأمينات المكتبات وباعة الكتب وأمناء المكتبات الذين أوصوا به.

وأشعرُ بالامتنان خصيصًا للقُرَّاء الذين اقتربوا من صفحاته على مدى هذه الأعوام، ورأوا أن هذا الكتاب يرحِّب بهم ويصوِّرهم، وعسى أن يكون قد حاز إعجابهم أيضًا...

من عادتي القول إن هذا الكتاب هو الأكثر شخصيةً بين كتبي كلها، والأقرب إلى سيرتي الذاتية، والأوثق صلةً بي وبعالمي، الذي ينطوي على قليل من الشطط ويحفل بالقراءات والأهواء الأدبية: أتعرَّف نفسي في كثير من صفحاته حيث أصوِّر علاقتنا بالكتب، تلك العلاقة الشغوف المُتحمِّسة، المَرَضية قليلًا في بعض الأحيان.

منذ الطبعة الأولى، التي صدرَت عام ٢٠٠٤، مضى هذا الكتاب ينمو مع كل واحدة من الطبعات التي رحتُ أضيف إليها نصوصًا ذات أهمية، وعددًا لا بأس به من الصور.

ولا تُعَدّ هذه الطبعة استثناء: إذ حذفتُ منها وحدَّثتُ فيها قليلًا من الإشارات إلى عالَم النشر الإسباني، التي يُرجَّح ألا تهمَّ القارئ بالعربية كثيرًا. ولكن في المقابل، زاد الكتابُ ثراءً بإضافة عدد من القصص المذهلة عن كُتَّابٍ باللغة العربية: عن شغف

نجيب محفوظ بالروايات البوليسية، ومكتبة الصاحب بن عبّاد الجوّالة، وفوضى مكتبة الجاحظ الذي راح ضحية الكتب... ربما كانت الكتب خطيرةً أيضًا، مثلما افترضنا دائمًا، وإن ليس بالمعنى المجازي فحسب.

كما وجدتُ نفسي في شخص الشاعر محمود درويش، الذي روى أنه، في طفولته الحافلة بأسفار الهروب والمنافي، قد وجد في الكتبِ أبوابًا ونوافذ وشبابيك تحمله إلى عوالم الأدب، الحقيقية بقدر الواقع، مع أنها تبدو أكثر ترحابًا، وتزخر بتلك الدهشة العصية على النسيان التي تحملنا إليها المخيلة دائمًا.

كما أودّ أن أقدّم شكرًا خاصًا إلى مارك جمال، الذي لم يكتفِ بدور المترجم وحسب، بل إنه مُروِّج الكتاب أيضًا، وصاحب الفضل في أن يصبح وصول الكتاب إلى القرّاء بالعربية الآن ممكنًا. إنه لمن دواعي سروري أن أعمل معه، ومع الناشر الذي يضمّ هذا الكتاب إلى إصداراته الآن بكل سخاء.

واسمحوا لي بأن أختم حديثي باعتراف. لطالما كان اختيار العناوين شيئًا كارثيًا: ذلك أنها تتمرّد عليّ، وتراوغني، فألوذ بالأقوال السائرة، وألعاب الكلمات المُتوقَّعة، والعبارات المطروقة التي لا تُغتفَر. ولذا قرّرتُ أن «أسرق» العنوان من مقالٍ نشره ألبرتو مانغيل قبل أن أضطَرّ إلى اختيار عنوان للكتاب بقليل. ومانغيل واحد من أعظم الخبراء ومُروِّجي المكتبات والقراءات. جاء المقال تحديدًا بعنوان: «أن تلمس الكتب». فتراءى لي في غاية الملاءمة والتوفيق والكمال من الأوجه كلها، حتى إنني لم أتردّد في الاستحواذ عليه.

ومنذ ذلك الحين تملّكني هاجسٌ يحدّثني بإمكانية اكتشاف الأمر، وباحتمال أن يشير أحدهم إلى الانتحال. ولكن المسألة برمّتها قد حُلّت بطريقة ودية عندما التقيتُ ألبرتو مانغيل قبل سنوات في معرض كتاب أُقيم في المكسيك، فاعترفتُ إليه قائلًا: «لقد سرقتُ العنوان من مقالٍ لك». أما مانغيل المُتفهِّم، بلحيته البيضاء الطوباوية، ونظرته الزرقاء، وقبعته، فقال لي إن سرقة العناوين لا تمثّل جريمة أبدًا -لا بدّ أنها تستعصي عليه هو أيضًا- وعلى كل حال، كانت الجريمة لتسقط بالتقادم بعد مضي عشرين عامًا. ولذا يمكن أن نعتبر أنفسنا بمأمن من تلك الناحية على الأقل.

لطالما كان من الأخبار الرائعة أن يُعاد نشر العمل، وأن يلتقي الكِتابَ قراء جددًا وقراءات جديدة. لا تحضرني أمنيةٌ أفضل من هذه لكتابي. ففي النهاية، وحده القارئ مُهِمٌّ بحقٍّ للكِتاب. أما القُرّاء بالعربية، الذين أودّ أن أرحّب بهم ترحيبًا مفعمًا بالامتنان، فعسى أن يجدوا في هذه الطبعةِ السحرَ الذي يحملنا إليه الأدبُ أحيانًا، ذلك الذي يجعلنا سعداء مرة أخرى كالأطفال. كما يُسعِدنا أن تكون لنا أسطورة، طبعًا! جزيل الشكر!

**خيسوس مارتشامالو غارثيا**

**مدريد، يوليو ٢٠٢٤**

# إهداء

إلى صديقي مانولو غوليبر،

قطعًا، أهدي إليه هذا الكتاب حتى يلمسه أيضًا.

وإلى خوسيه لويس ميليرو، وعلامة بورخيس.

I

# أن تعيش مع الكتب

لم أدرِ كم كتابًا أملكُ حتى زمن قصير مضى، بل إنني لم أشعر بغواية عدّ الكتب التي أملكها حتى زمن قصير مضى. ولكني، في نوبة حادة من نوبات الأرق التي أصابَتني قبل قليل، فكّرتُ أن عدّ الكتب وعدّ النعاج سيّان، ما دام الغرض من ذلك الاستغراق في النوم. ولا سيما بالنسبة إلى أبناء المدينة من أمثالي، الذين يُعتبَر عدّ النعاج شيئًا غريبًا عنهم.

وهكذا وقفتُ أمام رفوف الكتب كالرقيب، كالمحاسب، والوقت يكاد يكون فجرًا، ثم أجريتُ المسح الأول دفعةً واحدة.

دعونا نفترض أن الكتاب (المُتوسّط) يبلغ من العرض سنتيمترَين ونصفًا بالتقريب. تحقَّق من ذلك في البيت، ترَ أن هذا القياس ينطبق على أغلب الكتب (المُتوسّطة). وعلى الرغم من ذلك، يجدر بنا السؤال عن التكافؤ بين السنتيمتر عند الكاتب الفرنسي جورج بيريك (الذي طالما كان شديد الحذر في قياس الأشياء) وعند مُواطِنه الكاتب بورس فيان المُعذَّب، وعند بورخيس صاحب الكتابة المصقولة (الذي كلّما وجد عبارة غير مُقنِعة لم يتساءل أي صفة يضيف إليها، بل أي صفة يحذف منها)، وعند مارك توين المندفع (الذي اعترف بأنه ظلّ يكتب ما لا يقلّ عن ثلاثة آلاف كلمة في اليوم الواحد، أي عشر صفحات تقريبًا، على مدى أعوام).

يبلغ طول الرفّ الواحد في بيتي مترًا وثلاثين سنتيمترًا بالتقريب. ولدي ثلاثة عشر رفًّا، بإجمالي سبعة عشر مترًا بالتقريب. أضف إليها سبعة رفوف يبلغ عرض الواحد منها مترًا، ويتّسع لعددٍ من الكتب يتراوح بين الأربعين والخمسين.

بحسبةٍ رياضية بسيطة، يتأكّد لنا أن حوالي ألف مُجلّد تتعايش في مكتب منزلي وحده، هناك حيث أعمل. لاحظ أنني قلتُ «مُجلّدًا» ولم أقُل «كتابًا»، لأن لكلمة «مُجلّد» وقعًا يشي بالثقافة! بدءًا من عمر بعينه، يكفّ المرء عن اقتناء «الكتب» ويبدأ في اقتناء «المُجلّدات». أو «النسخ».

هذا بخلاف صفوف الكتب الخلفية القائمة في مكتباتنا، تلك البلدان التي لا خرائط لها، تلك الأراضي المجهولة، التي يُعَدُّ صُنّاع الأثاث مسؤولين عنها. دعونا نتّفق على أنه من العصيّ على التفسير أن يصل عمق الرف المُصمَّم للكتب أربعين سنتيمترًا أو أكثر، ما دام مُتوسّط الكتب لا يربو على الخمسة عشر سنتيمترًا! وهنا يظهر اثنان من مساوئ المكتبات المنزلية الأكثر شيوعًا: «الخردوات العاطفية» من جهة - أي الصور والمعادن وتذكارات الرحلات والجنود الصغار والسيارات الصغيرة التي يجمعها هواة المقتنيات-، تلك الأشياء التي تتراكم أمام الكتب وتعرقل الوصول إليها. والصفوف الخلفية من جهة أخرى، هناك حيث يتوارى عددٌ لا بأس به من الكتب في ذلك الليمبو(1) العصي على البلوغ (وربما أمكن الجمع بين المشكلتَين في بعض الأحيان).

منذ أعوام، أخبرني الشاعر الإسباني لويس أنطونيو دي بيينا بأنه قد ابتكر حيلة تسمح له بأن يستغلَّ تلك المساحة الخلفية ويعرفَ الكتب القائمة هناك في آنٍ واحد: إذ يضع منصةً ترفع كتب الصفّ الثاني بضعة سنتيمترات، ما يسمح بقراءة اسم المُؤلّف أو العنوان الذي يعلو فوق الصفّ الأول.

هناك حيلة أخرى، ألجأ إليها بنفسي، إذ أضع مُؤلّفات الكاتب الواحد بعضها خلف بعض. على سبيل المثال، يبدو للناظر أنني لا أملك لماريو بارغاس يوسا أكثر من خمسة أو ستة عناوين -«حفلة التيس»، «البيت الأخضر»، «حرب نهاية العالَم»، «الخالة خوليا وكاتب السيناريو»، «بانتاليون والزائرات»...- وعلى الرغم من ذلك، تكتمل مجموعتي بأربعة أو خمسة كتب أخرى للكاتب في الصف الخلفي، حيث تتوارى بعيدًا عن الأنظار، فتحجب كتبُ المُؤلّف الواحد بعضها بعضًا.

على كل حال، أعتذر عن الاستطراد في الحديث، كنّا نتكلّم عن الكتب التي قارب عددها الألف في مكتبتي.

لو أنني قرأتُها كلها، بمُعدّل كتاب واحد في الأسبوع، طبقًا للتقديرات، المعقولة، فإن مكتبتي تضمّ كل ما قرأتُ في آخر خمسة عشر عامًا من حياتي على وجه التقريب: بدءًا برواية «غاليندیث» لمونتالبان، وصولًا إلى «مدينة الأعاجيب»

لإدواردو ميندوثا، و«كاتدرائية»، لريموند كارفر، و«الفضائل الصغيرة» لناتاليا غينزبرج، وثلاثية أغوتا كريستوف، وقصص تشيخوف، مرورًا بتلك الأرض الفريدة، أرض الكتب العبثية، مثل «دليل النحّال المعاصر»، وكتاب عن تسميم نابوليون المزعوم بالزرنيخ في جزيرة سانت هيلينا، و«دليل النباتات المنزلية»، فضلًا عن بعض الكتب التي سوف أنكر أنني قد ذكرتُها، مثل كتاب أملكه عن «جاك السفّاح»، وكتاب وصفات ودليل فنادق.

لا تحسب أن الأمر يشغل بالي أكثر مما ينبغي، فلطالما كانت هناك حصةٌ من الكتب التي يصعب تبرير وجودها في كل مكتبة، حتى المكتبات التي لا ترقى شبهةٌ واحدة إلى أصحابها. فهذا الفيلسوف الألماني والتر بنيامين، على سبيل المثال، قد احتفظ بمجموعة خاصة من القصص الخرافية. وهذا الشاعر الإسباني بيثنتي أليكساندري، صاحب نوبل، قد احتفظ في مكتبته بقسمٍ مهم للروايات البوليسية، مثله كمثل الروائي الأوروغواني خوان كارلوس أونيتي، أو نجيب محفوظ، الذي كان يعود إلى قراءات الطفولة في كثير من الأحيان، تحديدًا إلى الروايات البوليسية، ولا سيما روايات أغاثا كريستي، فترى محفوظ يقول: «أعطاني صديقٌ روايةً بوليسية، منذ هذا اليوم لم أتوقف عن القراءة».

أما الكاتبة الأمريكية آن فاديمان، فلقد اعترفَت بأنها تضعف أمام كتب الاستكشافات في القارة القطبية الجنوبية، أو الشمالية (لا أدري أيهما على وجه التحديد، فلطالما خلطتُ بينهما).

بينما أكثر مُعاصرو الكاتب الأيرلندي البارع لورنس ستيرن، صاحب رواية «حياة السيد النبيل ترسترام شاندي وآراؤه»، من الحديث عن ذائقته شديدة التنوُّع، وهو الذي ضمَّت مكتبته أعمالًا في غاية الاختلاف، بدءًا بالأطروحات التي تتناول التحصين، وصولًا إلى كتب طبِّ التوليد، لكَ أن تتخيَّل.

أما في ما يتّصل بي مباشرةً، فأنا لا أدري في أي لحظة بدأتُ أشتري كتب تعليم الفرنسية، ولكني أملك منها في البيت ما يكفي حتى أجد نفسي مُضطَرًّا إلى الاعتراف بذلك. فضلًا عن الكتب التي تحمل إهداء أصحابها.

«بمكتباتهم يُعرَف الناس»، هكذا يقول البعض. وأنا على يقين من صحة ذلك. و«البيتُ هو المكان حيث يحتفظ المرء بكتبه»، كما كتب ريتشارد فرانسيس برتون، الكاتب والعسكري والمستكشف وراسم الخرائط والعميل السرّي والرحّالة الذي لا يكلّ -الذي تمكّن من الدخول إلى مكة مُتنكّرًا، وترجم «ألف ليلة وليلة»، و«كاماسوترا»-، ومن المُؤكّد أنه لم يجد سهولةً في تحديد موقع مكتبته. أما الكاتبة الفرنسية مارغريت يورسنار، فلقد قالت في إحدى المرات: «إن إعادة بناء المكتبة من أنسب الطرائق للتعرُّف بصاحبها».

من المُؤكّد أن الكتب تتحدّث عنا. عن شغفنا واهتماماتنا. فالكتبُ تعيّن حدودَ عالَمنا، وتشير إلى تلك التخوم المبهمة، غير الملموسة، تخوم الأرض التي نسكنها.

تتكلّم الكتب، لا عن القُرّاء الذين كنّا في حينه والقُرّاء الذين صرنا إليهم فحسب، بل إنها تتكلّم أيضًا عن القُرّاء الذين أردنا أن نكون، فلم يتحقّق لنا ذلك.

تتراكم الكتب بطريقة هوائية، متناقضة، متباينة. بعض الموضوعات تثير اهتمامًا نابضًا بالحياة في أطوارٍ مُحدّدة من حياتنا. ثم تُهجَر تلك الموضوعات كما تُهجَر المعتقدات الراسخة. فتسمح لنا الكتب بانتشال حطام السفن الغارقة كلها، شأن الطبقات الجيولوجية في المواقع الأثرية.

كم مرة زرنا أحد البيوت فوجدنا على الرفّ كتابًا مألوفًا يسمح لنا بأن نبادل صاحبه نظرةَ تواطؤ؟

تؤاخينا القراءات المشتركة كما تفعل ذائقة الطعام، أو الانتماء إلى فريق أتليتيكو مدريد، أو الاصطياف في المكان نفسه على الساحل.

إنتبه إلى ذلك بدءًا من الآن: بعض الكتب نجدها في كل بيت، ويقتنيها معارفنا كلهم. عندما أزور أحدهم، وأتلصّص على مقتنياته من الكتب، كثيرًا ما أرى «الأمير الصغير» لسانت إكزوبيري، و«دون كيخوته»، الذي لا تخلو منه مكتبة واحدة عادةً، و«أعمدة الأرض»، لكين فوليت. فضلًا عن بعض أعمال شكسبير، و«الكتاب المقدس» أو «اسم الوردة». منذ أعوام، وفي لحظة بعينها، اقتنى أصدقائي كلهم كتاب

«النورس جوناثان ليفنجستون»، ذلك النصّ البريء، الطفولي، دليل المُراهِق إلى التمرُّد. والآن صار كلٌ منا يمتلك جزءًا منفرطًا من أجزاء هاري بوتر.

«المكتبات حافلة بالأروقة والدروب السرية التي تفضي إلى مكتبات أخرى، للأصدقاء والأعداء والمعارف»، كما أكَّد الروائي الإسباني لويس لانديرو. ومن المثير للعاطفة أن نتخيَّل أنفسنا ونحن نقرأ الكتب التي قرأها فيما مضى كافكا أو فرناندو بيسوا (لمَ لا؟).

في النهاية، تؤلِّف الكتبُ أرضًا مشتركة بيننا، إنها التخوم المُعلَنة لذلك البلد المُتخيَّل الذي نتحرَّك في أرجائه.

لطالما فوجِئتُ بالسهولة التي تختار بها الرموزُ القومية كتابًا مُفضَّلًا أو فيلمًا أو مدينة واحدة، في تلك اللقاءات غير المؤذية من حيث المظهر، التي تُجرَى في استعجال، وتُنشَر في الصحف خلال العطلات الأسبوعية.

«لو ذهبتَ إلى جزيرة مهجورة، فأي كتاب تحمل إليها؟»، كثيرًا ما يُطرَح هذا السؤال. أما أنا، فأجد ذلك التمرين على الاكتفاء بشيء واحد ضربًا من المحال. لأن البلد الأدبي الذي أنتمي إليه هو ذلك البلد حيث يعيش ماكس آوب وإيتالو كالفينو، ألبير كامو وبورخيس، سيبالد وكارفر، وفي بعض الأحيان بير كالديرس وماكولرز ورِوالد دال، كورتاثار وديليبيس وميندوثا، فضلًا عن كابوشينسكي، ذلك الصحافي البولندي (صاحب «أبنوس»، و«حرب كرة القدم»، و«الإمبراطور»...).

دع عنك المُؤلِّفين الذين لا أتذكَّرهم، والكتب التي قد نسيتُها. لأن هناك مكتبة هائلة مهيبة مِن الكتب المنسية، لا تلك التي نسيتُها أنا وحدي، على كثرتها، بل الكتب التي نسيها العالَم بأسره (لا بدّ أن تكون هناك مكتبة كهذه في مكان ما).

منذ زمن ليس بعيدًا، قرأتُ أن الكاتب الألماني باتريك زوسكند، مُؤلِّف «العطر» و«حكاية السيد زومر»، كان من ضحايا النسيان القاتل. يحكي زوسكند أنه يقرأ الكتاب نفسه مرتين أو ثلاثًا في بعض الأحيان، من دون أن ينتبه إلى ذلك حتى نهاية الكتاب تقريبًا. كما نجد أن الشاعر الفرنسي مالارميه –وهو قارئ آخر من

ضحايا فقدان الذاكرة- قد اتَّخذ قرارًا في لحظة من حياته بأن يكتب في نهاية كل كتاب رأيه ونبذة قصيرة عن موضوع العمل، تجنُّبًا لإعادة القراءة اللاإرادية.

أما أنا، فمِن الكتب ما أذكر على أكمل وجه أنني قد قرأته، وأذكر أنه قد راقني في حينه، وترك في نفسي أثرًا، ولكني لا أقدر حتى على إيجازه في مُلخَّص هزيل، مثل: «الليل الاستوائي آتٍ»، لمانويل بويغ، الذي لا أملك أدنى فكرة عن قصته. و«أبطال وقبور»، لإرنستو ساباتو، الذي يستحيل عليَّ أن أتذكَّره. و«مستر فيرتيغو»، لبول أوستر، الذي أشعر وكأنني لم أقرأه.

في بعض المرات أُسأل عن قراءات الطفولة والمراهقة. ولكن من المؤسف أنني عاجز عن تذكُّر الكتب التي كنتُ أقرؤها آنذاك، باستثناء العناوين التي يمكن توقُّعها بوضوح، كمُؤلَّفات الروائي الإيطالي إيميليو سالغاري أو جول فيرن أو هرمان ملفيل. بل إنني لا أذكر أول كتاب اقتنيته، وذلك شيء مُؤسِف، نظرًا إلى يقيني بأن الزيارة الأولى إلى المكتبة تمثِّل بيان استقلال. إنها شيء حاسم. كالسُّكر لأول مرة، الواقعة التي أحتفظ بذكرى لا تُمحى لها. أو أول فيلم يشاهده المرء على شاشة السينما في غياب أبوَيه. في حالتي كان أول فيلم شاهدته «ذَهَبُ ماكينا»، للمخرج جون لي تومسون، خلال موسم الصيف في البلدة حيث كنتُ أمضي الإجازة، فأطلق الفيلم أبواق الإنذار كلها في تحليلي النفسي.

أجل، أذكر أن الحيّ الذي كنتُ أسكنه قد خلا من متاجر بيع الكتب، باستثناء متجر أدوات ماري، القائم أمام بيت أمي تقريبًا، هناك حيث كنا نشتري أشياء من قبيل قلم الرصاص والمبراة ودفتر السلك وممحاة ميلان البيضاء بلون القشدة، اللذيذة، التي كنا نكتب عليها بالأقلام الاسم والصف (٣ ب) كيلا يسرقها أحدهم في المدرسة. وهناك، كانت تُباع مجموعةٌ تُسمَّى «كلاسيكيات النشء»، على ما أذكر، تتراوح صفحاتها بين النصوص والرسوم. ولقد قرأنا تلك الكتب وأعدنا قراءتها مرة تلو أخرى.

على مدى أعوام، ظلَّت «كلاسيكيات النشء» تمثِّل هدايا أعياد الميلاد المجيدة وأعياد المجوس وعيد ميلادي، وحتى الهدايا التي أتلقَّاها بمناسبة إصابتي بأمراض الصغار. كان أهلي يلبسونني بيجامة ثقيلة ويشترون من أجلي كتابًا كلَّما لزمتُ

البيتَ مريضًا، مصابًا بالسعال أو عسر الهضم المزعج أو التهاب اللوزتَين. ولذا فأنا ما زلتُ أقرن بين كثير من قراءات الطفولة وبين ملمس الملاءات الدافئ، وسبات الحمّى السقيم، وذلك المذاق المرير، مذاق الأسبرين المُذاب في الماء المُحلّى بالسكر في ملعقة من أجلنا، وتلك الرائحة الدبقة، رائحة المنثول الذي ينبعث من دهان فيكس فابوروب. كل هذا، مُضافًا إليه اليقين الكسول بأن زملاءنا يكافحون للبقاء مستيقظين في تلك الفصول الرصاصية، الثقيلة كشواهد القبر، ذات المكاتب المصنوعة من الفورميكا ومصابيح الفلورسنت، بينما نبقى نحن في البيت مُدلَّلين، دافئين، مستغرقين في القراءة.

كما أخبرني الكاتب المكسيكي سِرخيو بيتول بأنه قد اكتشف الكتب في طفولته، وهو مريض بحمّى الملاريا التي أرغمَته على ملازمة الفراش أعوامًا، في البيت المُرفَق بالحديقة المملوك لجدته. وهكذا اقترنَت السنوات الأولى من العمر وذكريات الطفولة عنده بالمرض وأبخرة الأعشاب الطبية وبلاط العيادات البارد. كما حدَّثني عن نفسه وهو طفل مريض، له بشرة رمادية تكاد تبدو شفافة، وأخبرني كيف اتَّخذ لنفسه ملاذًا في القراءة: في كتب سالغاري، وكونراد، ودوماس، وفي عوالم القراصنة والجزر المهجورة والأدغال الاستوائية حيث تبلغ المساحات الخضراء من الكثافة حدًّا لا يسمح بمرور ضوء الشمس. كان يذكر الإحباط الجارف الذي غمره عندما تخطّى سياج البيت لأول مرة، خائفًا، وهو لا يزال في فترة النقاهة، وخرج إلى عالَمنا الرمادي، الباعث على الضجر، العاجز عن منافسة عوالم الكتب.

ذات مرة قال المؤلِّف الفرنسي ميشال ويلبك، صاحب الأطوار الغريبة والشعر الأشعث: «مَن لم يقرأ حلَّت به لعنةُ الاكتفاء بهذه الحياة».

قبل أعوام، في فترة بعينها، كثُرَت اللقاءات التي جمعَتني بسِرخيو بيتول. ومع أن لقاءاتنا كلها مُتَّصلة بشؤون مهنية -مقابلة صحافية، أو تقرير صحافي، أو تقديم واحد من كتبه- فلقد أفضى التكرار إلى أُلفةٍ غير مُتوقَّعة بيننا. وهكذا صار يذكر اسمي، ويلقي عليّ التحية بمودة، ويسألني عن ابنَيّ وكأن بيننا معرفة قديمة. أذكره خلال لقائنا في مقهى فندق سويثيا بمدريد -الذي سبق أن نزل به خوليو

كورتاثار وإرنستو ساباتو- حيث أجريتُ معه لقاء لإحدى الصحف، بينما هو يدخّن بلا انقطاع، ويحدّثني عن الكتّاب الروس الذين شُغِف بهم. حدّثني سِرخيو بيتول عن تشيخوف، وتورغينيف، وبوشكين، والميتة العبثية التي لقيها الأخير في مبارزة أُصيب خلالها برصاصة في المعدة، وحدّثني عن احتضار غوركي المُروّع قائلًا إن الطبيب الذي أشرف على حالته، وأذاقه كل صنوف العذاب سدًى، قد قرّر أن يضع ديدان العَلَق حول فم غوركي وهو على وشك أن يطلق حشرجة الموت الأخيرة. وإذا بالكاتب المُروَّع يخلط بين الديدان وبين أصابع الشيطان الذي جاء ينتزع روحه.

دوَّن بيتول جميعَ الكتب التي قرأها منذ عام ١٩٦٠ في دفتر سلك، مع ذكر التاريخ واسم المُؤلِّف والعنوان وترتيب الكتاب في قائمة القراءات. عندما التقيتُه في المرة الأخيرة، اعترف لي بأنه قد دوَّن في قائمته ما يربو على الثمانية آلاف عنوان، ما يُعَدّ رقمًا ضخمًا. من حسن حظِّه أنه قد عاش في بيتٍ ريفي يقع في خالابا ويتميَّز بأنه يكبر مع قراءات صاحبه الذي كلَّما واجه مشكلة في مساحة المكتبة أطاح بجدار لبناء حجرة إضافية. في تلك الأثناء، بينما رحنا نتبادل أطراف الحديث، كانت قاعةٌ أخرى مُخصَّصة لكتب الفن والرسم على وشك أن تجهز، ومن المُؤكَّد أنه قد استطاع تعبئتها بالكتب حتى فاضَت بمحتوياتها.

لا بدّ من الاعتراف بقدرةِ الكتبِ المُفاجِئةِ على الاستعمار، لأنها تحتلّ الرفوف واحدًا تلو آخر. وبعد أن تغمر المكتبةَ بالكامل، تغرس الكتبُ بذرتها سرًّا في مكان آخر بالمنزل، مكان سرِّي، يبعد عن المكتبة بصورة لا تفسير لها، ويبدو عصيًّا على البلوغ. يظهر أحد الكتب على الطاولة فجأةً. وما هي إلَّا أيام قليلة حتى يتكاثر، بسرعة مفاجئة. ثم تنتشر الكتب على الأرائك، وتحتلّ مساند الأسِرَّة والطاولات... كالوباء التوراتي، تجتاح الكتبُ عليات البيوت والخزائن والسلال المصنوعة من الخيزران حيث كانت تنام القطط.

منذ أعوامٍ، زرتُ الشاعر الإسباني فرانثيسكو برينيس في بيته، كما زرتُ مكتبته الفوضوية، المتهالكة بعض الشيء: حيث تتراكم الكتب على الأرض هاربةً من الرفوف، مُتراصّةً على أفاريز النوافذ في ما يشبه العشوائية، بعضها مُكوَّمًا وبعضها

منفرطًا...

حكى لي الشاعر أن جهاز الإنذار قد انطلق في بيته ذات مرة، والوقت يكاد يكون ليلًا، فأطلّ من إحدى الشرفات مذعورًا. ومن هناك رأى فتيين أو ثلاثة فتيان يهرولون مبتعدين عن المكان، وافترض بأنهم قد ذهبوا إلى بيته للسرقة. حتى هم بوغِتوا بانطلاق الإنذار، وسارعوا بالابتعاد، فتجرّأ وأخذ يلوّح بالعصا من شرفته صائحًا: «رجال الشرطة قادمون! إنهم في الطريق!».

«وصل رجال الشرطة، في حين لم تكُن ساقاي قد توقّفَتا عن الارتجاف بعد»، قال لي. حضر بعض رجال الحرس المدني بسيارة الدورية، وحاولوا التهدئة من روعه. رأى أحدُهم الفوضى، فقال وهو يهزّ رأسه آسِفًا:



- «لا يهمّ ما سرقوا يا سيد فرانثيسكو، وإنما الحال التي تركوا عليها كل شيء، الفوضى والهرج والأشياء المحطّمة...».

- «ولكنهم لم يتمكّنوا من اقتحام المكان، لأنهم انطلقوا راكضين حالما سمعوا صوت الإنذار...»، أجابه.

وإذا هو يدرك لأول مرة، من خلال النظرة التي رمقه بها ذلك الحارس المدني، أن مكتبته في حاجة إلى قليل من النظام، على الأرجح.

لطالما تأثّرت كثيرًا بصور مكتبة الفيلسوف خوليان ماریاس الواقعة في بيته بحي أرغوييس، تلك المكتبة التي يبدو أن إعصارًا قد عصف بها، حيث تترامى الكتب على الأرائك، وتغطّي المقاعد والطاولات. وكذلك صور مكتبة الروائي المكسيكي خوسيه إميليو باتشيكو، في مدينة مكسيكو، ومكتبه الذي ازدحم بالكتب والأوراق حتى صار أشبه بمخزن لأحد متاجر التحف. ذات يوم، تعثّر خوسيه إميليو باتشيكو بكومةٍ من الكتب غير المُستقِرّة في مكتبته، فسقطَت الكتب على رأسه وسط دوي عارم. ما هما إلّا يومان حتى فارق الحياة.

ولم تكُن تلك هي المرة الوحيدة التي أفضَت الكتب فيها إلى وقوع حادثة مميتة. فهذا عملاق الأدب العربي، الجاحظ، قد راح ضحية كتبه أيضًا. إذ قِيل إنه قد حاول

أن يبلغ كتابًا على أحد الرفوف الثقيلة وهو في الثانية والتسعين من العمر، فسقطَت مُجلّدات الكتب عليه وأردَته قتيلًا في الحال.

الكتب، ذلك الجيش المستوطن.

يُحكَى عن الكاتب المكسيكي ألفونسو رييس (الذي عُرِفَت مكتبته باسم «الكنيسة الألفونسية»(2)) أنه قد بعث إلى دور النشر رسالةً يرجوها أن تتوقّف عن إرسال مزيد من الكتب الصادرة حديثًا إليه، لأنه لا يجد لها مكانًا.

ويُعَدّ الكاتب الإسباني فرناندو أرابال سجينًا آخر من سجناء الكتب، نظرًا إلى مكتبته الهائلة في باريس، تلك المكتبة التي تمنعه من الانتقال، لأنه لا يجد شقةً كبيرة بالقدر الذي يتيح له الاحتفاظ بالكتب كلها في موضع واحد.

كما تقول الأسطورة إن الكاتب الإسباني رامون غوميس دي لا سِرنا قد امتلك عدة حجرات وأكواخ ومخازن في مدريد، كان يملأ الواحد منها حتى تهدّده الكتبُ والأوراقُ بأن تفيض وتجرفه في طريقها، عندئذ يهجر المخزن قبل فوات الأوان.

ولقد حكى لي الكاتب مانويل بيثينت أنه قد سأل الشاعر داماسو ألونسو، في لقاء أجراه معه قبل أعوام، عمّا يفعل في أثناء النهار. أما داماسو، الدقيق المُرتَّب المُهندَم كما هو عهده دائمًا، فأجاب بقوله: «في الصباح أقوم، وأتناول الفطور، وأغتسل، وأرتدي الثياب، ثم أقف على هذا الباب طوال النهار حتى لا يدخل إلى بيتي كتاب واحد آخر».

ولقد تبرّع داماسو ألونسو للأكاديمية الملكية الإسبانية بمكتبته التي تربو على الأربعين ألف مُجلّد –حسبما يُقال-، أضِف إليها المقتنيات الشخصية والمخطوطات والصور الفوتوغرافية...

بينما لم يستطِع أحد أن يخبرني، ولو على وجه التقريب، كم كتابًا قد امتلك الشاعر الكوبي غاستون باكيرو. ومع ذلك، قيل لي إن بيته كان فوضى حقيقية، حيث تناثرَت الكتب في كل الأنحاء، وتكدّسَت في الرواق وعلى قطع الأثاث والمقاعد، وتراصّت في صفوف مستندةً إلى الجدران. حتى الحمّام لم يخلُ من الكتب التي

امتلأ بها المغطس كاملًا، وإن كنتُ أغدو ممتنًّا إن لم تخرج هذه المعلومة من هنا!

كان الأصدقاء المدعوون إلى البيت يُضطَرّون إلى إزاحة الكتب عن المقاعد للجلوس أو إخلاء رقعة على الطاولة. على الرغم من ذلك، وبالعودة إلى مسألة الذاكرة، ففي غمرة هذه الفوضى المطلقة (أكوام الكتب المُكدّسة على الأرائك، وأبراج الكتب المنهارة على الشبابيك، والصناديق وخزائن الملفات والظروف والدرّاجة الرياضية التي يلفّها الغموض)، حظي باكيرو بالقدرة على تذكُّر كل كتاب امتلك وكل كتاب قرأ، والتحدُّث عنها كما لو أنه قد فرغ من قراءتها مساء ذلك اليوم، واستحضار الحبكة وأسماء الشخصيات والحوارات. حتى صار هو «الرجل الكتاب»، «الرجل المكتبة».

قال بورخيس إننا لسنا ما نكتب، بل ما نقرأ. وكم كان مُحِقًّا!

لم يملك أدنى فكرة عن موضع كل كتاب، بطبيعة الحال... أتكلّمُ عن باكيرو، الذي كان يطلب منه أحدهم أن يعيره كتابًا، فيأخذه إلى البيت داعيًا إياه إلى البحث، وهو لا يدرك، على الأقل في ظاهر الأمر، حجمَ المهمة الشاقة التي تواجه المدعو بلا طائل يُرتجَى. «لا أدري، ألقِ نظرةً في تلك الأنحاء»، هكذا كان يقول وهو يشير بيده راسمًا قوسًا هائلًا، كما يفعل مصارع الثيران، قوسًا يضمّ ذلك المشهد الفوضوي الذي لا يُسبَر له غور.

# II

# النظام والحفل

ما دامت الكتب تتحدّث عن طباع أصحابها واهتماماتهم وشخصياتهم، كما قلنا من قبل، فإن الطريقة المُتّبعة في تنظيم الكتب تشي بأمور ذات أهمية أيضًا.

والحقّ أن تنظيم الكتب عمليةٌ تعرقلها الكتب نفسها، لأنها تقاوم التشكيل مقاومةً هائلة.

على مدى زمن طويل، لم تُرصَد للكتب مواضع مُحدَّدة في البيوت، بل إنها كانت تُخزَّن في الصناديق والعلب والخزائن، إلى جوار الصحون والأكواب وملاءات الأسِرّة والبدلات... بدءًا من القرن السادس عشر فحسب، نادَت الطبقات الميسورة بأن تُفرَد مساحة مُخصَّصة للقراءة، النداءات التي كثُرَت في القرن السابع عشر. وهكذا رُصِدَت حجرات للقراءة، حيث بدأ الناس يحتفظون بالكتب أيضًا، فوق الطاولات أو المكاتب أولًا، طبقًا لتقاليد القرون الوسطى، ثم على الرفوف المصنوعة من الألواح المتراصة بطول الجدران.

بطريقة ما، تحتفظ الكتبُ بغريزةٍ قديمة تليق بالأدغال، وبنزعةٍ إلى التفرُّق تعترض سبيل النظام. أيأتي العنوان قبل المؤلِّف؟ أم يأتي الموضوع قبل العنوان؟ أم يأتي المؤلِّف قبل الموضوع؟ دع عنك «فيلق الشتات»، أي الكتب التي تهيم في تلك الأنحاء أعوامًا في محاولةٍ لتجد مكانًا عصيًا على التصنيف.

يقول الخبراء إن الطريقة المثلى التي لا تخيب لترتيب المكتبة المنزلية تكون بوضع الكتب مع استباق المكان الذي سوف نبحث فيه عن الكتب لاحقًا. إنه تمرين من تمارين الاستبصار، يضعنا في مواجهة السلوك البشري العصيّ على التوقُّع، بسذاجة غير مُتوقَّعة.

ولتبسيط الأمر، يمكننا التأكيد على وجود سلوكَين يتّبع القارئ واحدًا منهما، حسب طريقته في مواجهة الأمر: فمِن القُرّاء مَن يحافظ على النظام في مكتبته، ومَن يفضّل أن تصول الكتب وتجول كما يحلو لها حتى تجد لنفسها مكانًا، وإن ترتّب

على ذلك المجازفة بالعثور على الكتب داخل المغطس في نهاية المطاف.

«الفوضى في حدّ ذاتها لا تشغل بالي، وإنما ينغّصني الثمن الذي يدفعه المرء لقاء الفوضى: وبذلك أعني الاضطرار إلى شراء كتاب تعرف أنك تملكه، لأن شراءه مرة أخرى أيسر من العثور عليه»، هكذا اعترف لي الفيلسوف الإسباني فِرناندو ساباتير، الذي تتنفّس مكتبته فوضى في منتهى الخصوصية.

أما أولئك الذين يسعون إلى فرض نظام بعينه في مكتباتهم، فنجدهم ينتمون إلى مدارس شتى. وعلى الرغم من ذلك، يسعنا القول إن الترتيب الأبجدي أو الزمني للمؤلّفين عادةً ما يفرض نفسه، مع الأخذ في الحسبان شتى المتغيرات، والتصنيفات، والتصنيفات الفرعية، والاستثناءات.

في كتابه «تاريخ القراءة» يحكي ألبِرتو مانغيل عن حالة استثنائية، لعلّامةٍ من بلاد فارس، هو الصاحب بن عبّاد، المولع بالكتب والقراءة، الذي استدعاه الملك نوح بن منصور ليولّيه الوزارة، فاعتذر إليه بأنه لا يستطيع حمل كتبه التي تستلزم قافلةً قوامها أربعمئة ناقة مُدرَّبة للسير عَبر الصحراء (بترتيب أبجدي دقيق!). ولا يُعَدّ الأمر ضربًا من المبالغة، فهذا المستشرق جاك ريسلر يقول إن الصاحب بن عبّاد كان يملك منذ القرن العاشر كتبًا أكثر مما يمكن إحصاؤه في كل مكتبات أوروبا مجتمعةً آنذاك (نحو مئة وسبعة عشر ألف كتاب).

أما الكاتبة الأمريكية سوزان سونتاغ، التي نذرَت وقتًا طويلًا لإعادة تنظيم كتبها الخاصة وترتيبها، فلم تحتمل فكرة أن يتقاسم أفلاطون [Platón] وبينشون [Pynchon] رفًّا واحدًا لمُجرَّد أن اسمَيهما يبدآن بالحرف نفسه.

وفي كثير من الأحيان، كان الروائي الأوروغواني خوان كارلوس أونيتي -ذلك الفوضوي المحترف الذي طالما تاهَت كتبه في البيت على غير هدى- يحكي قصة الصبية ابنة الثانية عشرة أو الثالثة عشرة التي حضرَت إلى بيته ذات يوم وعرضَت عليه أن ترتِّب مكتبته، بعد أن تلَت حروف الأبجدية كاملةً، الأمر الذي اعتبره كلاهما مُؤهِّلًا كافيًا لأداء المهمة. وبعد أمسية قضَتها منهمكةً في ترتيب الكتب، التي راحت ترفعها عن الرفّ ثم تكدّسها وتنظّفها قبل رصّها فوق رفّ آخر، أطلعَته الصبية على

أحد الرفوف التي قد رتَّبَتها، فتأمَّل أونيتي النتيجة ذاهلًا: إذ اجتمع جويس، وكوكتو، ولو كاري، وسويفت، وبورخيس، ورولفو، وأونيتي، وخوان رامون، وكورتاثار على الرفِّ المُخصَّص لحرف الـ«ل» وسط غيرهم من الكُتّاب الكثيرين. إذ وضعَت الصبيةُ الكتبَ طبقًا للترتيب الأبجدي بالفعل، غير أنها لم تعتمد ألقاب المؤلِّفين، بل أسماءهم الأولى: جيمس، جان، جون، جوناثان، خورخي لويس، خوان، خوان كارلوس، خوان رامون، خوليو. وهكذا تأكَّد لأونيتي أن تنظيم الكتب وفقًا للترتيب الأبجدي يظلّ أمرًا اعتباطيًّا وعشوائيًّا بقدر مراكمة الكتب في الأروقة. لأن وضع سانت تريز [Santa Teresa] إلى جوار الماركيز دي ساد [Sade]، أو هوميروس إلى جوار همينغواي، لمُجرَّد أنهما يشتركان في الحرف الأول، يظلّ أمرًا ينطوي على عشوائية انتحارية.

ولذا يبدو من المنطقي أن يتمسَّك المرء بالترتيب الزمني الدقيق، بدءًا بأرسطو، وصولًا إلى بوكوفسكي المُعذَّب الذي يستقرّ في أقصى الطرف الآخر من الصالون، على سبيل المثالِ، مع ترك مسافة كافية بينهما دائمًا.

واسمح لي بأن أذكر شيئًا يثير الفضول ويليق بالمحترفين: تُرتَّب المكتبات من اليسار إلى اليمين، ومن أعلى إلى أسفل، حتى يكون ثقل الكتب هو الذي يُثبِّت الرفوف على الأرض (وهنا مكمن الفضول).

الحقّ أن الترتيب الزمني للمؤلِّفين لا يحلّ المشكلة على الإطلاق، لأن كلًّا من الكاتبَين فرانثيسكو دي كيفيدو ولويس دي غونغورا سوف يستقِرَّان جنبًا إلى جنب، على الرغم من الخصومة الشديدة التي اشتعلَت بينهما وهما على قيد الحياة. أضف إلى ذلك أن بارغاس يوسا قد يستقرّ إلى جوار غارسيا ماركيز، أو على مقربة شديدة منه، وإن لم يشعر أحدهما نحو الآخر بحبٍّ جارف. أما لو رُتِّبَت الكتب حسب بلد الكاتب، فالأرجح أن نجد الروائيَّين البرتغاليَّين جوزيه ساراماغو وأنطونيو لوبو أنطونيش يشغلان رفًّا واحدًا، حيث ينكز كلٌّ منهما الآخر بمرفقه طوال الوقت.

زد على ذلك أن الترتيب الزمني يتطلَّب علمًا كافيًا بتاريخ الأدب، في أقل تقدير، إن لم يتطلَّب علمًا واسعًا، فمن الضروري أن يمتلك المرء القدرةَ على تحديد موقع الكاتب زمنيًّا، ولو بالتقريب، حتى يعرف مكانه. يبدو ذلك شيئًا بسيطًا في بعض

الأحيان: فلا شك أن أنكريون يسبق خوان مارسيه، مع أن مارسيه قد تقدّم في العمر بالفعل! كما تأتي فرجينيا وولف قبل مارتا سانث. ولكن الأمر يتعقّد في بعض الأحيان. فمن المستحيل أن أعرف أيهما أسبق، موباسان أم إدغار ألان بو، على سبيل المثال. صراحةً لا أعرف أيهما كان أصغر عمرًا، ولا أملك أدنى فكرة عن ذلك. وماذا عن رامبو وزولا، أيهما أسبق؟ أميل إلى القول بأن رامبو أصغر عمرًا. ولكني ربما كنتُ بذلك أستسلم لغواية الشباب الأبدي الخادع لرامبو.

وعلى الرغم من ذلك، فلطالما تراءى لي بعض المُؤلّفين طاعنين في العمر: مثل تولستوي، الذي تحضرني صورته شيخًا وقورًا لا محالة. أو ويتمان، صاحب الشعر الغزير.

أضف إلى ذلك مخاطرة أخرى تكمن في المظهر الخدّاع الذي يتّسم به بعض المُؤلّفين: فهذا كافكا (١٨٨٣) الذي قد يبدو لنا أكبر كثيرًا من رايموند تشاندلر (١٨٨٨)، مع أنهما من عصرٍ واحد. وربما فكّرنا أن الشاعر الإسباني ثورّيًا (١٨١٧) أكبر من بودلير (١٨٢١)، على الرغم من التقارب العمري بينهما. دعْ عنك الكتّاب المتساوين في العمر.

أما الشاعر الإسباني فيلكس دي أثوا، الذي يرتّب كتبه زمنيًا، شأنه شأن الروائي خابيير ماریاس، فيلجأ إلى حيلة لا تخيب لتبديد الشكوك: إذ يدوّن عام ميلاد الكاتب على أضلاع الكتب –التي طالما انتقى منها نسخًا رخيصة التجليد-، ما يجعل من مكتبته جدولًا زمنيًا، مع الاعتذار عن الكلمة، لتاريخ الأدب.

كما أخبرني كيف ينظّم انتقالاته من بيتٍ إلى آخر: فلطالما سافرَت كتبه مُقسّمةً حسب اللغة -الألمانية والإنجليزية والفرنسية والإسبانية-، مع الرفوف التي رافقَته معظم حياته. وهكذا، فما إن تجد الرفوف مكانها في البيت الجديد حتى لا يعود أمامه إلّا وضع الكتب فوقها كما كانت في الأصل.

هناك مَن يتّبع طريقة غريبة بعض الشيء. على سبيل المثال، يرتّب الكاتب الكوبي ليساما ليما كتبَه حسب دور النشر، ما يسهّل الأمور كثيرًا.

أما الكاتب الإسباني خيسوس فيرّيرو، فيرتّب كتبه حسب النطاق الثقافي: الكتب

الغربية من جهة، والكتب الشرقية من جهة أخرى، أضف إلى ذلك قسمًا ثالثًا للكتب «عديمة الجنسية». يمكن الاعتراف بأن تأليف كتابٍ «عديم الجنسية» من أندر الأشياء التي قد تحدث للكاتب، ولا أدري إن كان من أشدّها إيحائيةً أيضًا.

أخبرني الكاتب الإسباني إغناثيو مارتينيث دي بيسون بأنه ظلّ يضع الكتب بترتيب قراءتها أعوامًا: ما جعل مكتبته ضربًا من يوميات القراءة، سجلًا دقيقًا يصف طريقته في بناء كَون القراءة الخاص به، عنوانًا إثر عنوان. الوضع الذي استمرّ حتى تلقّت زوجته دورةً تعليمية في إدارة المكتبات.

كما فتنتني الطريقة التي رتّب بها الكاتب الإسباني ماركوس خيرالت تورينتي مكتبته الخاصة. إذ قسمها إلى قسم للكتّاب الأحياء، الذين يُنزِلهم في حجرة مشمسة تنتشر فيها الرفوف حتى لا تترك إلّا فتحة للباب، وقسم للكتّاب الموتى، في قاعة أكاد أصفها بأنها معتمة، حيث تغطّي مكتبةٌ هائلة أحد جدران القاعة بالكامل. ولقد أخبرني بأن قسم الكتّاب الموتى ثابتٌ إلى حدّ كبير، بخلاف الكتّاب الأحياء الذين يفارقون الحياة طوال الوقت، ما يجعل نقلهم من قسمٍ إلى آخر ضرورةً مُلِحَة دائمًا. ونظرًا إلى ضخامة الأعداد، فلقد اتّخذ قراره بجمع الموتى الأحدث عهدًا، وإن يكُن بصفة مؤقتة، في ركنٍ بحجرة الأحياء، وكأنه المَطهَر أو الليمبو (لم أعرف الفارق بينهما قطّ) حيث يمدّد الكتّابُ الموتى إقامتهم وسط الأحياء أعوامًا أو عقودًا، في بعض الأحيان، قبل أن ينتقلوا نهائيًا إلى القاعة التي لم يعُد فيها مُتّسعٌ لمزيد من الكتب ومزيد من الموتى، مثلها كمثل القبور.

اقترحتُ عليه أن يخفّف الحمولة بافتتاح قسمٍ للكتّاب الخالدين، يذهب إليه أولئك الذين تحقّق لهم المجد بعد الموت والمرور بالليمبو. ثم رأى كلانا أن مثل هذا المقترح خليق بمضاعفة الحيرة في رفوف الكتب، وفي نفسه بصفة خاصة.

لم أستطِع التحقّق من الطريقة التي اتّبعها الفيلسوف الإسباني أورتيغا إي غاسيت في ترتيب الكتب، وإن قيل عنه إنه قد امتلك القدرة على تحديد موقع أي كتاب في مكتبته (التي تربو على الخمسة عشر ألف مُجلّد)، حتى وهو غائب عن المكتبة. يُحكَى أنه، خلال رحلاته وتنقّلاته الكثيرة، وبينما هو خارج البلاد، كان يرسل

تعليمات دقيقة بشأن الرفّ والموضع المُحدّد الذي يشغله الكتاب المنشود، ويطلب أن تُنسَخ الأجزاء التي يريدها أو تُملَى عليه عَبر التليفون.

حتى وقتٍ قصير نسبيًا، اتُّبعَت المكتبات العامة طريقةً أكثر علميةً بكثير. إذ كانت الكتب تُرتَّب حسب الحجم، فتُجمَع الكتب الصغيرة معًا، والمُتوسّطة معًا، والكبيرة معًا، توفيرًا للمساحة. ولهذا السبب، ما زالت قياسات الكتاب تُذكَر في كثير من بطاقات الفهرسة. الأمر الذي يردّنا، من دون قصدٍ، إلى البداية، عندما بدأنا الحديث بالتساؤل عن السنتيمتر عند بورس فيان. من دون الخوض في تفاصيل الحالات التي يغدو فيها الكتاب الصغير مُتوسّطًا، والمُتوسّط كبيرًا.

منذ شهور، شاء لي الحظّ أن أزور أجنحة مكتبة إسبانيا الوطنية في ألكالا دي إيناريس: حيث تقوم ستة أبراج تضمّ مئتي وخمسين كيلومترًا من الرفوف -لو تراصّت في صفٍّ واحد لامتدَّت من مدريد إلى ثامورا- تُخزِّن فوقها أكثر من ثلاثين مليون وثيقة ومنشور وخريطة ولافتة، وكتاب، طبعًا. في مخزن ذاتي التشغيل، يتولّى روبوت مهمةَ الإشراف على أكثر من مليوني ونصف مليون عنوان، مُوزَّعة على أكثر من سبعة عشر ألف منصة هائلة، فيحدّد موقع الكتاب طبقًا لمنظومة مريبة تُعرَف باسم «الترتيب الفوضوي»: حيث يشغل كلُّ كتابٍ مكانًا في إحدى المنصات. وكلّما طُلِب الكتاب، وُضِع مكانه آخر بالحجم نفسه، أو حجم قريب منه. ثم لا يعود إلى المنصة التي سبق أن شغلها من قبل، وإنما يذهب إلى أي منصة أخرى، حيثما وُجِدَت مساحةٌ بالحجم نفسه، أو حجم قريب منه.

يسجّل الروبوت رقم الكتاب، أو يصل بينه وبين رمز المنصة حيث وضعه، وهكذا يتمكّن من تحديد موقعه عندما يُطلَب في المرة التالية. إنها لمعجزة أن يرى المرء كيف يتحرّك الروبوت بتلك الفعالية الدقيقة الحاسمة التي تمتاز بها التكنولوجيا، فيلتقط الكتب ويودعها فوق المنصات في ذلك المشهد الخليق بالمستقبل -على طريقة فيلم «بليد رانر» قليلًا-، حيث تتراصّ رفوف الكتب على ارتفاع بناء من ستة طوابق.

ينبغي لي الاعتراف بأنني قد وجدتُ نفسي في ذلك «الترتيب الفوضوي»، سرًّا. لم

أجد نفسي في الاسم وحسب، مع أنه وثيق الصلة بي، وإنما في المنظومة أيضًا.

عندما انتقلتُ إلى بيت جديد للمرة الأخيرة، قبل أكثر من خمسة وعشرين عامًا، طغى على رفوف مكتبي نظام بعيد. غير أنه مضى يتراخى ويتبدّل بمرور الوقت. بعد ذلك الانتقال، اتّخذتُ قراري بتقسيم الكتب إلى شِعر ومقالة وتاريخ وأدب، بخطوط عريضة، ثم تقسيم الفئة الأخيرة إلى أدب إسباني وترجمات. كما فرضتُ ترتيبًا أبجديًّا متساهلًا، استطعتُ أن أحافظ عليه تقريبًا حتى حرف «G»، الذي يرد فيه غارسيا ماركيز. أما البقية، فتحكمها منظومة الترتيب الفوضوي، بطريقة تزداد وضوحًا بمضي الوقت: على سبيل المثال، أجمعُ إصدارات بعض دور النشر معًا، بغض النظر عن اسم المؤلِّف. وأكدِّسها بعضها فوق بعض لاستغلال ارتفاع الرفوف. ما يسمح لبعض المؤلِّفين بالتواجد في مكانَين أو أكثر، لأن ذلك رهنٌ بالدار التي تُصدِر أعمالهم.

فضلًا عن ذلك، أملك رفَّين كلاهما فوضوي، أولهما يضمّ قائمة من الكتب عن الحرب الأهلية، بسبب عملٍ نشرتُه منذ أعوام، وثانيهما يضمّ كتبًا عن تاريخ الأديان، وإن انضمَّت إليها -بصورة فوضوية- الأعمال الكاملة لكامو، لسبب لا أعرفه. كما أملك رفًّا يشتمل على مؤلَّفاتي، ورفًّا آخر، قريبًا من المكان الذي أكتب فيه، يضمّ القواميس وكتب الأسلوب والكتب الإرشادية والدراسية المتّصلة باللغة والنقد الأدبي، وإن كنتُ أرى بينها في هذه اللحظة «كتاب الحيوان» لفيرير ليرين، بالقرب من كتابَي «مديح النبوغ وتفنيده» و«غابة اللغة» لأنطونيو مارينا، وقد استقرّ كلاهما هناك بصورة فوضوية.

يُرجَّح أن تكون كتبي قد تضاعفَت ثلاث مرات منذ أقمتُ ذلك النظام الأوَّلي البعيد، ما اضطرّني إلى تنفيذ عمليات التطهير طوال الأعوام الماضية، فتعيَّن عليّ أن أبحث عن مأوى لعدد من الكتّاب الأثيرين عندي في أمكنةٍ أخرى بالمنزل. على سبيل المثال، نحّيتُ جانبًا كتب الروائيَّين الإسبانيَّين مونيوث مولينا وخوليو ياماثاريس، التي يحمل كثيرٌ منها إهداء المؤلِّف، وكتب الروائية ألمودينا غرانديس أيضًا. وعلى الرغم من ذلك، فما زالت كتب لويس لانديرو العزيز الذي أشعر نحوه بالإعجاب

باقيةً مكانها في حرف الـ«L»، بصورة فوضوية، وبلا تفسير -«ألعاب العمر المتقدّم»، و«عازف الجيتار»، و«اليوم، جوبيتر»، و«الشرفة في الشتاء»، و«رذاذ»- بينما استقرّ خلفها صفٌّ ثانٍ للكاتب نفسه.

وبعيدًا عن الترتيب الأبجدي، فلقد اجتمعَت كتبُ بول أوستر وجوزيف روث وكلاريس ليسبكتور في شتّى الأمكنة بمنزلي، بسبب نوبات شغف القراءة التي كانت تدفعني إلى قراءة خمسة أو ستة عناوين للمؤلِّف نفسه، وأنا في حالة ذهولٍ، إلى أن تخفّ تلك النوبات. أذكر أنني قد أُصِبتُ بحمّى سيبالد، ونوبة إيبارغوينغويتيا، وهوس روبرت فالسر -الذي اقتنيتُ أعماله كاملةً- كما أُصِبتُ بحمّى الروائي التشيكي بوهوميل هرابال بعد أن زرتُ مكتبة المخرج دابيد تروِيبا، حيث أطلعني على جميع كتب هرابال مُرتَّبةً ومُنظَّمةً في حرف الـ«H».

- «يُنطَق رابال، كالمُمثِّل. ولقد فارق الحياة يومَ وُلِدَت ابنتي بيوليتا. لطالما ذكرناه في عيد ميلادها، فأقول لها: وُلِدتِ يومَ انتحر هرابال»، هكذا قال لي دابيد تروِيبا.

- «رباه!»...

كما أُصِبتُ بحمّى بورخيس، الذي تناثرَت كتبه في شتّى الأمكنة بمنزلي، وإن استقرّ بعضها في المكان المُخصَّص له، وفق الترتيب الأبجدي -بين الكاتب الأرجنتيني بيوي كاساريس والكاتب البيروفي برايس إتشينيكي-، حيث وضعتُ الأعمال الكاملة لبورخيس، التي تقع في أربعة مُجلَّدات اشتريتُها منذ أعوام.

وعلى الرغم من اقتنائي أعماله الكاملة، فأنا لم أتخلَّص من الكتب المنفرطة التي حصلتُ عليها قبل ذاك: «مناقشة»، و«تساؤلات أخرى»، كلاهما مُجلَّد باللون الأحمر القاني. وحين لم يعُد يتّسع لهما المكان، وضعتُهما على رفٍّ بالرواق، إلى جوار «الأعمال الأساسية لبورخيس»، من إصدارات الأكاديمية الملكية الإسبانية. وفي الصوان حيث أحتفظ بالكتب التي تحمل إهداءات أصحابها، لديّ نسخة من «قصص»، بتوقيع بورخيس الذي يكاد لا يعدو أن يكون خربشةً مرتجفة، اشتريتُها من مكتبةٍ في بوينوس آيرِس. كما استقرّ على رفٍّ آخر كتاب «الألف»، و«تاريخ الخزي الكوني» ونسخة أخرى من «قصص»، يُرجَّح أنني قد قرأتُها قبل أربعين عامًا،

وتركتُها إلى جوار موباسان وسالينجر، مع رفقة لا بأس بها.

وبرغم ذلك، فعادةً ما أعثر على الكتب التي أبحث عنها، بفوضوية الروبوت الوطني وكفاءته. ولكن، إن لم يظهر الكتاب في الموضع الذي يخطر لي، أغدو عاجزًا عن العثور عليه في أي مكان، وأسارع إلى شرائه مرة أخرى، كما يفعل الفيلسوف الإسباني فِرناندو ساباتير، يقينًا مني بأن الحصول على نسخة جديدة أيسر من العثور على تلك التي أملكها بالفعل.

والحقّ أن المكتبات الفوضوية تتيح للقارئ فرصة أن يخوض مغامرة اللقاء مصادفةً. فبينما هو يبحث عن عمل بعينه، تظهر كتبٌ أخرى لا ينتبه إليها لولا الفوضى. كتب تفتح له دروبًا جديدة، وتقدّم إليه ذكريات وقراءات أخرى.

لطالما كان ترتيب الكتب يمثّل كارثة في حقيقة الأمر. فحتى المكتبات التي يسودها النظام الدقيق، الصارم، المُحكَم، لا يخلو ترتيبُ الكتبِ فيها من العنصر العشوائي العارضَ أبدًا. على سبيل المثال، هناك مَن يفرِّق بين المُؤلَّفات المختلفة لـنابوكوف أو فيتزجيرالد، ومَن يجمع الكتب المُجلَّدة.

ولقد قيل لي عن الأديب الإسباني غونثالو تورّينتي بايّستير إنه كان يرتِّب الكتب وفق معايير شتى: الخامات، أو التجليد، أو الأقدمية، أو الألوان... في منظومة شديدة التعقيد والهوائية من حيث المظهر، إلى حدّ جعله الشخص الوحيد القادر على تحديد موقع الكتاب المنشود، وإن ليس في كل مرة.

من التقليعات الجديدة التي فُرِضَت على مستخدمي المنتديات وشبكات التواصل الاجتماعي: أن يصوِّر المرء مكتبته مُرتَّبةً حسب ألوان أضلاع الكتب: الكتب الأشدّ دكنة بالأسفل والكتب الأزهى لونًا بالأعلى، ما يخلق تدرُّجات جذّابة فريدة من الألوان، ويثير في نفس الناظر إحساسًا بالخفّة.

أضف إلى ذلك تقليعة أخرى تقضي بتوجيه أضلاع الكتب إلى الداخل، حتى لا تُرَى على رفوف المكتبة إلّا حواف الصفحات البنيّة، في تناسق زخرفي بدرجات البني والأبيض الضارب إلى الصفرة والبيج، يبعث على الاسترخاء الغامر. أما العثور على

الكتب، فذلك شيء لا نتحدّث عنه!

أذكر أنني كنتُ أتردّد قبل أعوام إلى متجر يبيع الكتب القديمة في مدريد، حيث يختلف تصنيف الكتب باختلاف الحجرة، فتجد حجرة لكتب التاريخ والفكر، وأخرى للأدب واللغات والكتب الدينية -في تعايش يدعو إلى الفضول، يجمع بين كتب تعليم الإنجليزية وكتب التعاليم الدينية-، وحجرة أخرى لكتب الفن والرحلات، وحجرة أخيرة للبقية الباقية، حيث تجد عروضًا وكتبًا مُتفرّقة عن صباغة النسيج وميكانيكا السيارات والفنون اليدوية والحرب العالَمية الثانية وأي شيء ممكن.

تتّصل كل الحجرات بعضها ببعض، في ما يشبه المتاهة الغريبة العصية على التوقُّع، في ذلك المكان المُسلّي حيث يتمكّن المرء من التنقُّل بين مجالات المعرفة بمُجرّد المرور من حجرة إلى أخرى.

وعلى كل حال، فلطالما طَرَح ترتيبُ الكتبِ بعض المشكلات.

«احترسوا من المكتبات المُنظَّمة»، هكذا قال الكاتب الإسباني أثورين. دعونا نقُل إن تنظيم الكتب شيء يجدر بنا أن نجتنبه، ما لم يكُن المرء يملك الوقت اللازم، أو يتلقّى أجرًا مقابل هذا العمل، شأن الفيلسوف الفرنسي ديدرو، الذي اشترَت الإمبراطورة الروسية كاترين مكتبته كاملةً، بما فيها حتى ديدرو نفسه، حتى يحافظ على المكتبة في حالة مثالية. أو كما فعل صديقي الكاتب الإسباني أتشاغا، الذي يمتلك مكتبة بديعة في علية بيته القديمة، مكتبة أشبه بقبو سفينة عتيقة، سفينة شراعية، يرتّبها والد زوجته، الذي يزوره مرتَين كل شهرٍ حتى يعيد الكتبَ إلى مكانها على الرفوف بعد أن يفرّقها صديقي وينثرها هنا وهناك.

## III

# كيف تتخلّص من خمسمئة كتاب

ربما كانت الجهود المبذولة كلها، مُضافةً إليها الحاجة المُلِحّة إلى التحكُّم في ضخامة مكتبته الخاصة، هي التي جعلَت هيرمان هسه يتّخذ قراره القاطع بأن يحتفظ بعدد مُعيَّن من الكتب في بيته. الأمر الذي أرغمه على تنفيذ عمليات التطهير بين حين وآخر، كلّما تجاوزَت كتبُه العددَ الذي فرضه على نفسه.

وتيسيرًا لذلك الإجراء، تفتَّق ذهن هيرمان هسه عن أربعة أسئلة تمكّنه من البتّ في الأمر وتحديد الكتب التي يمكن الاستغناء عنها وتلك التي لا غنى عنها، بلا ندم، وبطريقة علمية: «أتحتاج إلى الكتاب؟»، «أتريد الكتاب؟»، «هل أنت على يقين من أنك سوف تقرؤه مرة أخرى؟»، «أتشعر بشديد الأسف لفقدانه؟».

كانت إجابة واحدة بـ«نعم» تكفي للاحتفاظ بالكتاب في البيت. وإلّا، فيُحكَم عليه بالطرد إلى غير رجعة.

ولكن هيرمان هسه ينقصه سؤال محوري، حاسم، قاطع: «ألديك مكان؟ ألديك مُتَّسع للكتاب؟»، فعادةً ما تأتي مشكلة تراكم الكتب مُقترِنةً بغياب المكان على نحو قاتل.

أما المُفكِّر والشاعر الألماني هانس ماغنوس إنتزنسبيرغر، فلقد فرض على مكتبته «حدًا أقصى» صارمًا: ولم يُصرِّح بدخول كتاب واحد ما لم يستغنِ عن آخر. الأمر الخليق بأن يصرفَ المرء عن الحصول على مزيد من الكتب. حتى الناقد الإسباني خوان إدواردو ثونييغا، وزوجته الناشرة فيليثيداد أوركين، قد اتّخذا منذ أعوام قرارًا فاجعًا يقضي بتحديد عدد الكتب التي تتراكم في البيت وتنتشر في الحجرات كلها بلا استثناء، وحتى في الأروقة: إذ أرغم كلٌّ منهما نفسه على الاستغناء عن كتاب واحد مقابل كل كتاب يصل إلى البيت حديثًا. وإن اعترفا لي بأنهما قد خرقا الاتفاق مرة تلو أخرى، وتسلّلا إلى البيت مُحمَّلَين بالكتب محجوبةً تحت المعطف، أو مُخبّأةً في كيس المشتريات، وسط الكراث والفاكهة.

ولكن السؤال يبدو واضحًا على كل حال: ما العدد الأمثل للكتب في المكتبة المنزلية؟ ما العدد المُحدّد للمُجلّدات التي يمكن أن ينجو المرء بها؟

تقترح ماري كوندو -«مُؤثِّرة» النظام وطرائق التخزين والترتيب المنزلي، المُعلِّمة الروحية التي تلقِّن المشاهِد كيف يطوي الأقمصة- أن لا يحتفظ المرء في البيت بأكثر من ثلاثين كتابًا. وذلك شيء في متناول الجميع، طبعًا.

أما صديقنا الكاتب الفرنسي جورج بيريك، مُؤلِّف كتاب «الحياة، دليل المستخدم»، فلقد اقترح رقمًا أكثر سخاءً في حينه: ٣٤٣ كتابًا، ذلك الرقم اللعوب، الذي يُقرَأ على الوجه نفسه من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين، في لعبة تليق بجورج بيريك. غير أنه قد واجه مشكلة عند التطبيق: إذ لا يقع الكتاب في مُجلَّد واحد أحيانًا. في إسبانيا كتاب شهير جدًا بعنوان «غارغوريس وهابيديس»، لسانتشيث دراغو، صدر في أربعة مُجلَّدات. ومع ذلك، يجب أن يُحسَب بوصفه كتابًا واحدًا في واقع الأمر، بل إنه كان يُباع في صندوق واحد أصلًا. كما نجد أن «ذاكرة النار»، لإدواردو غاليانو، قد صدر في ثلاثة مُجلَّدات، ولكن المنطق يقول إن تلك المُجلَّدات لا تؤلِّف ثلاثة كتب، بل كتابًا واحدًا مُقسَّمًا إلى ثلاثة أجزاء.

منذ وقتٍ قصير، عثرتُ على «رباعية الإسكندرية» للورنس داريل، ثم فقدتُها في بيت اصطيافٍ لم أعُد إليه مرة أخرى. أربعة مُجلَّدات تؤلِّف عملًا واحدًا، كما يشير العنوان. الأمر نفسه يسري على كتاب «الجولة الأخيرة» لخوليو كورتاثار، الذي يقع في مُجلَّدَين، وإن جاءت الطبعة الأولى في مُجلَّد واحد. أو كتاب «أسلافنا» لإيتالو كالفينو، الذي يضمّ ثلاث قصص خليقة بأن تؤلِّف ثلاثة كتب.

أما «أنشودة» الشاعر الإسباني خورخي غيين الخالدة، فتمثِّل حالة أشدّ تعقيدًا، إذ تعاقبَت طبعاتها المُدقَّقة المزيدة المُنقَّحة على مدى عشرين عامًا بالتقريب. صدرَت الطبعة الأولى عام ١٩٢٨ في مجلة أوكثيدينتي، فجاءت مُؤلَّفة من خمسة وسبعين قصيدة. أما الثانية، فصدرَت عام ١٩٣٦، وجاءَت مُضافًا إليها خمسون قصيدة أخرى. أما الثالثة، فصدرَت عامَ ١٩٤٥، وجاءَت مُؤلَّفةً من مئتي وسبعين قصيدة. ثم صدر الكتاب في نسخته النهائية عام ١٩٥٠ في بوينوس آيرِس، وجاء مُؤلَّفًا من ثلاثمئة

وثلاثة وأربعين قصيدة. وبناء على ما تقدّم، ففي كم كتابًا يقع كتاب «أنشودة»؟

طبقًا لما ذهب إليه بيريك، يجب أن يُعَدّ العملُ الواحدُ كتابًا واحدًا، بغضّ النظر عن عدد المُجلّدات التي يتألّف منها، ما دامَت هناك وحدة فلسفية مقصودة في الحجّة التي يقوم عليها الكتاب. ولكن بيريك يتساءل أخيرًا: ألا تمثّل الأعمال الكاملة للمُؤلّف كتابًا واحدًا، محاولة جديدة للاقتراب من العمل الواحد محكيًا بطرائق شتى، مرة تلو أخرى، على ألسنة مختلف الأشخاص؟ كما ينتهي الكاتب الإنجليزي غراهام غرين، شأنه شأن غوته، إلى الإقرار بأن كتبه كلها لا تعدو أن تكون مُجرّد شذرات من اعتراف عام.

ماذا عن «يوليسيس»، لجيمس جويس، الصادر في مُجلّدَين؟ في كم كتابًا يقع «يوليسيس»؟ وماذا عن الأعمال الكاملة لأوسكار وايلد، الصادرة في مُجلّد واحد؟ في كم كتابًا تقع؟

وهكذا نجد أنّ مكتبة بيريك، التي وضع لها حدًّا أقصى لا يتعدّى الثلاثمئة وثلاثة وأربعين كتابًا، فيها مُتّسع للكتب كلها، وربما أكثر. ما يحيلنا إلى «مكتبة بابل» اللامتناهية لبورخيس، تلك المكتبة التي تضمّ كتب الكون كلها، لا القائمة على قيد الوجود فحسب، وإنما الكتب التي سوف تُكتَب أيضًا، وتقع في مُجلّد واحد مُؤلّف من عدد غير محدود من الصفحات اللامتناهية في رقّتها.

ولكن، بالعودة إلى مسألة الكتب مفرطة الكثرة، فما مغزى الرفوف المُكتَظّة التي تشغل الجدران كلها وتمتلئ بالكتب المغبرة، المتقاطعة، المختلطة، المُتراصّة في صفّ تلو آخر؟

كانت مكتبة الشاعر الإسباني خيراردو دييغو تكاد تحجب الجدران تمامًا. بينما ازدحمَت مكتبة الكاتب ميغيل دي أونامونو بالكتب المُكدّسة كيفما اتُّفق تقريبًا، وكأنها متجر لبيع الكتب المستعملة.

ما الغرض من الاحتفاظ بالكتب التي نعرف أننا لن نعاود قراءتها أبدًا، والأرجح أننا لن نحتاج إليها أبدًا، وخاصة ما دامت مكتباتنا لا تتّسع لها؟

الحقيقة التي لا يرقى إليها جدالٌ أن الكتب توحي بشيء من السلطة الثقافية، وتسبغ على أصحابها وجاهةً، وتُعدّ علامةً على الطموح الفكري بوجه العموم.

في بعض الأحيان، يصل أحدهم إلى بيتك، فإذا هو ينظر إلى رفوف المكتبة سائلًا بقدرٍ من الإعجاب الذي لا يخلو من دهشة سافرة: «وهل قرأت هذه الكتب كلها؟»، فتُضطَرّ أنت إلى النفي مُتعجّبًا من مثل هذا السؤال: «أي أمور تخطر لك!».

أخبرني الكاتب الإسباني أندريس ترابييو بأن عاملًا قد ذهب إلى بيته لإصلاح عطلٍ ذات مرة، فوقف ذاهلًا أمام مكتبته المهيبة، وسأله عن مهنته. «أنا كاتب»، أجاب ترابييو، فأردف العامل سائلًا وقد ملأت الدهشة نفسه: «وهل كتبتَ كل هذه الكتب بنفسك؟». بعد لحظة من الحيرة، أجاب ترابييو بأنه قد كتبها كلها، أو أغلبها، من دون أن يبدو عليه أدنى قدر من التأثُر. «وكيف أصيبه بالإحباط!»، قال لي في وقت لاحق.

أضف إلى ذلك أن الكتب تسهم بحلول زخرفية أيضًا، لأنها تسبغ على البيت طابعًا خاصًا، وتبثّ الدفء في المكان شتاءً، بكل تأكيد. قرأتُ أن تاجرًا بارعًا يُدعَى السيد كلوسترمان، في روسيا القديمة، في عهد الإمبراطورة كاترين العظمى، خلال القرن الثامن عشر، قد تحقَّقَت له ثروة ضخمة من بيع صفوف الكتب ذات التجليد الفخم التي لا تضمّ بين دفَّاتها سوى نفايات الورق لأبناء الطبقة الأرستقراطية. ما سمح لأفراد الحاشية بالعيش في ذلك الخيال، واقتناء المكتبات من دون المجازفة بتعريض أنفسهم لغواية استخدامها. لم تكُن الكتب هي الشيء الوحيد المُتخيَّل في روسيا كاترين العظمى، فحتى البيوت وصوامع الغلال والكنائس كانت تُصنَع من نسج الخيال أحيانًا... ولقد عُرِفَت تلك القرى باسم «بوتكمين»، شأن السفن الحربية التي يُطلَق عليها الاسم نفسه. مضى الأرستقراطيون يشيِّدون قرى من الجصّ متظاهرين بالتقدُم الذي لا وجود له. ويختلقون المصانع الزائفة الصغيرة التي تتصاعد الأدخنة من مداخنها الصغيرة عن بعد، وصوامع الغلال الزائفة، والمزارع الزائفة التي تغيب عن الأبصار في الأفق، والقنوات الزائفة... أما الإمبراطورة المسافرة في عربتها المُقفَلة التي تجرّها الخيل، فتمضي في طريقها ناظرةً من

خلال نافذة العربة الزجاجية، مُعجَبةً بذلك البلد المُتخيَّل الحافل بالرعية والماشية والمساحات المزروعة قمحًا والمحاصيل المُتخيَّلة بصورة قاتلة.

قُرّاء زائفون ومكتبات زائفة. وكتب زائفة. في بعض مكاتب العمل والمطاعم والمقرّات الرسمية، صارت الكتب الآن تُقتَنى بالمتر الواحد، مع مراعاة خصائص لونية بعينها في التجليد -كتب حمراء اللون، وأخرى دفاتها من الجلد الأملس، وأخرى تحمل البيانات مطبوعة على الأضلاع- وهكذا تُستخدَم الكتب لمُجرَّد الزينة. رياء!

وبالعودة إلى كتبنا مفرطة الكثرة، قد نتفهَّم أن يتمسَّك المرء بكتب معينة كان لها مغزى في حياته. فهذا الكاتب الإسباني لويس ماتيو دييث قد شقَّ عليه أن يردّ كتاب «السهل يحترق» لخوان رولفو منذ استعاره من مكتبة الجامعة حتى اشترى نسخة لنفسه.

بعض الكتب هكذا، ضرورية كالدواء، كالبلسم، كالدهان: بل إن الشاعر ريلكه قد فكَّر في إمكانية التعافي عن طريق القراءة. ذات يوم، وبينما هو يقتطف الورد في حديقته من أجل الصديقة التي أخطرَته بزيارتها، انغرزَت في يده شوكةٌ، فأصابته بالتهاب غريب، ثم تفاقمَت الإصابة نظرًا إلى ابيضاض الدم الذي كان يعاني منه. في أيامه الأخيرة، رفض ريلكه الحقن واكتفى بالقراءة مُدافِعًا عن حقِّه في اختيار طريقته في الموت، بدلًا من ذلك الموت الذي عرضه عليه الأطباء. وفي ديسمبر من عام ١٩٢٦، مات ريلكه عن عمر يناهز الحادية والخمسين.

أما الشاعر الروسي جوزيف برودسكي، الذي نزل سجينًا في سيبيريا، فلقد وجد عزاءً في قراءة الشاعر الإنجليزي ويستن هيو أودن، بينما وجد الكاتب الكوبي رينالدو أريناس عزاءً في قراءة «الإنياذة» عندما زُجَّ به في سجون فيديل كاسترو. أما الكاتب الإسباني ميغيل دي أونامونو، الذي حُكِم عليه بالنفي لأنه قد وقف في وجه الديكتاتور بريمو دي ريبيرا عام ١٩٢٤، فلقد حمل الحدّ الأدنى من الأمتعة، بما في ذلك «الكوميديا الإلهية»، ونسخة صغيرة من أشعار ليوباردي. بينما نسخَت الكاتبة زويه بالديس رواية «ثلاثة نمور حزينة» للروائي الكوبي كابريرا إنفانته بخطّ

يدها، كلمة إثر كلمة، في ثلاثة دفاتر سلك مدرسية قديمة، حين أعارها أحدهم نسخةً مهترئة من تلك الرواية المحظورة في كوبا مقابل ثلاث عبوات من الحليب المُكثّف، أي حصتها من السلع المدعمة لشهرٍ كامل. كما كان الشاعر محمود درويش ينسخ الكتب المستعارة بخطّ يده، قبل أن يردّها إلى أصحابها، حتى يتسنّى له الاحتفاظ بها دائمًا.

وأذكر أن الشاعر الإسباني لويس غارثيا مونتيرو قد حدّثني عن كتاب عتيق سرقه من بيت أبوَيه ثم احتفظ به في مكتبته بغرناطة، وما عاد يخرج به من البيت قطّ لئلّا يضيع، كتاب بعنوان «أجمل ألف قصيدة باللغة الإسبانية»، انطفأت دفتاه المصنوعتان من القماش الأحمر من فرط الاستخدام، وحال لون أوراقه إلى البنّي.

في هذا الكتاب كان والده يقرأ قصائد الشعراء الأثيرين عنده في نهار الأحد: إسبرونثيدا أو كامبوامور أو ثوريا. وما زال لويس غارثيا مونتيرو يحفظ تلك الأبيات عن ظهر قلب، ويستحضرها مُقلّدًا صوت أبيه الأجشّ، المفتعل كصوت منشد الشعر:

**مرّ يومٌ إثر يوم،**

**شهرٌ تلو شهر،**

**عامٌ بعد عام،**

**بَيد أن دييغو لم يعُد**

**من فلاندرز،**

**وهو الذي قد شدّ الرحال**

**إلى فلاندرز.**(3)

بعض الكتب لا غنى عنها، بل إنها ترغمنا على اقتنائها والاحتفاظ بها إلى جوارنا حتى نتصفّحها بين الحين والآخر، ونلمسها، ونضمّها إلينا، ونتأبّطها. من الكتب ما كان الافتراق عنه ضربًا من المحال، لأن فيه شذرات من خارطة الكنز.

ولكن تلك الكتب التي لا غنى عنها ليسَت بالغة الكثرة، حتى لو تحلَّينا بالسخاء في الاختيار. فهذا بورخيس قد اجتمع له في النهاية نحو ثلاثة آلاف كتاب. بينما اجتمع للشاعر لبيثنتي أليكساندري عدد أقل، ألفان كتاب، ثم أوصى بمكتبته للشاعر والأكاديمي كارلوس بوسونيو.

لا أعرف كم كتابًا يسعني أن أمتلك. لعلّك تذكر أنني قد بدأت الحديث قائلًا إن كتبي تتراءى محجوبةً خلف الصور وتماثيل الجنود الصغيرة، محاطةً بالمعادن والحفريات وعلب الصفيح... تتراصّ كتبي في صفَّين، محجوبةً عن الأعين، متقاطعةً، تتراكم على الأرض وتتكدَّس في أبراج تحت الرفوف كواجهات المتاجر. غير أنني لا أدري لها عددًا.

يبدو أن الروائي الإسباني إدواردو مندوثا يحتفظ بعدد صغير على نحوٍ مفاجئ من الكتب، مئة أو مئتَين، أو ربما أقل حتى من ذلك، وهو الذي تعوَّد أن يهجر الكتب في المنتزهات والمقاهي متى فرغ من قراءتها. لا بدّ أنه من الطريف أن تشاهد أحد المارة يقترب ثم يلتقط الكتب.

أما الشاعر سالبادور إسبريو، فهو أشدّ راديكالية، لأنه لا يحتفظ في بيته إلَّا بالكتب الأربعة أو الخمسة التي يستعين بها في عمله في تلك اللحظة، ولا يكاد ينتهي منها حتى يهديها أو يتبرَّع بها. مثلما كان يفعل سيوران، الذي كاد لا يحتفظ بالكتب في بيته، بل إنه قد تعوَّد القراءة في مكتبة البلدية بمدينة باريس. أذكر أنني قد قرأت في موضع ما عن كاتب المقال والنصوص القصيرة الفرنسي جوزيف جوبير، الذي تمكَّن من إنقاص حجم مكتبته كثيرًا بانتزاع الصفحات التي لم ترُق له من كل كتاب، وهكذا لم يحتفظ في مكتبته إلَّا بالصفحات التي تهمّه وحسب. لا أدري إن كان ذلك هو الحل الأمثل.

منذ بضعة أشهر، زرتُ مُؤسَّسة الكاتب الإسباني فرانثيسكو آيالا القائمة بمدينة غرناطة، حيث أُودِعَت مكتبته الشخصية التي تعرَّضَت لكل صنوف المصائب. قبَيل اندلاع الحرب الأهلية، عام ١٩٣٦، وفي واحدة من رحلاته الأولى إلى أمريكا الجنوبية، ترك آيالا كتبه في أحد المخازن، فتعرَّض المخزن للاعتداء والنهب في

مدريد الحرب الأهلية، مدريد الدموية، التي تُرَى بالأبيض والأسود. وهناك فُقِدَت كتبٌ أهداه إياها مانويل آثانيا وأورتيغا إي غاسيت وصديقه الشاعر لوركا الذي كتب له إهداء في نسخة من الطبعة الأولى من «الأغاني الغجرية»، حسبما تذكُّر مفعمًا بالحنين دائمًا. ماذا كان من أمر تلك الكتب؟

بعد أعوام، وبينما هو في منفاه بالأرجنتين، شرع يؤلِّف مكتبةً جديدة، مجموعة صغيرة من الكتب، على حدِّ قوله. وعندما قرَّر فرانثيسكو آيالا السفر إلى بورتوريكو، عهد بمكتبته إلى أخيه بيثينتي الذي أودعها في قبو متجر كتب وأدوات يملكه في بوينوس آيرس. ولكن المياه غمرَت القبو، فخسر كتبه كلها مرة أخرى. لم ينجُ من تلك الكارثة سوى قليل من الكتب التي أخذها معه. كان أحدها يحمل إهداء بورخيس، بخطه الصغير، الدقيق، الذي يكاد يليق بموظف إداري. فضلًا عن نسخة أخرى بإهداء صديقه كورتاثار، وكتب أخرى قليلة اتَّخذها بذرةً للمكتبة الجديدة التي بدأ يؤلِّفها بشيء من خمودِ الهمّة. «وفيمَ المضي قدمًا!»، هكذا كتب في مذكراته التي جاءت بعنوان «ذكريات ونسيان»، في إشارة منه إلى تلك الحوادث التي وضعَت حدًّا لشغفه بجمع الكتب وأفضَت به إلى إهمالها تمامًا. وعلى الرغم من الإحباط، ومع أنه قد صار قارئًا منطويًا على ذاته، فلقد انتهى إلى امتلاك مكتبة تربو محتوياتها على أربعة آلاف كتاب.

ومن الجدير بالفضول أن الشاعر محمود درويش، في رحلته من منفى إلى آخر، كان يترك مكتبته خلفه دائمًا، وإن حرص في تنقُّلاته على أن يحمل كتابًا واحدًا فقط، ديوان المتنبي، الذي رآه درويش تلخيصًا لكل الشعر العربي الذي سبقه، وتأسيسًا لكل ما لحقه.

**ولكن، فيمَ الاحتفاظ بكل هذه الكتب؟ لعلّنا نسعى إلى البحث عن مُبرِّر في مغالطة الإرث الذي سوف نتركه لأبنائنا. أصفها بالمغالطة لأن الظنَّ بأن ورثتنا سوف يرحِّبون بحمل هذه التركة من الكتب، التي تكاد تقتصر قيمتها على الجانب العاطفي منذ أن ظهرَت كتب الجيب، ضربٌ من الوهم. مع الأخذ في الحسبان أن جميع ورثتنا من أبناء العصر الرقمي، أو من «جيل الألفية»، باللغة الدارجة بينهم.**

تسوء حال الكتب كلّما تقدّم بها العمر: فيصفرّ الورق ويغدو هشًا، ويتفكّك التجليد، وتهترئ الدفّات، ويتسلّل الغبار إلى الصفحات لا محالة، وتترك الرطوبة في الأوراق بقعًا بنية لا تُمحى ونقاطًا من الصدأ...

في واقع الأمر، أعجزُ عن فهم السبب الذي عادةً ما يجعلنا، نحن القُرّاء، نأبَى التخلُّص من الجزء الذي يمكن الاستغناء عنه من مكتباتنا، الجزء الذي يُرجّح أن يكون ضخمًا. لي أصدقاء يفتخرون بأنهم لم يتخلّصوا من كتاب واحد مدى الحياة. حتى أنا ينبغي لي الاعتراف بأنني لم أبعِد عن بيتي سوى صندوقَين من الكتب، حجمهما ليس بالغ الضخامة. بل إنني لم أقدِم على ذلك إلّا حين عثرتُ على شخص يمكنه الاحتفاظ بالكتب، وكأنها قطيع من القطط حديثة الولادة، الأمر الذي لم يكُن سهلًا على الإطلاق.

لو أنك استغنيتَ عن صندوق من الكتب ذات مرة، فأنت تعرف عمَّا أتكلَّم. قد يتخلَّص المرء من أي شيء في بيته تقريبًا، فلا ينتقص ذلك أدنى قدر من وجاهته الاجتماعية: قد يبدّل أثاث المطبخ، أو مقاعد الصالون المصنوعة على الطراز الإمبراطوري، أو طاقم الصالون، أو الصوان المصنوع على الطراز الإيزابيلي... أي شيء، عدا الكتب.

مَن تخلَّص مِن الكتب أصبح مارقًا، ما لم يفعل ذلك في سبيل التضامن ومن أجل الأهداف النبيلة. ليس لك أن تتخيَّل كم تتمنّع الكنائس والمُنظَّمات والمكتبات عن قبول الكتب المُهمَلة (التي تُعتبَر محلَّ الحديث في نهاية المطاف). لو كنتَ شخصًا شهيرًا -بارزًا-، لاحتفظَت إحدى الجامعات بمجموعتك الخاصة (أو مُجلَّداتك، بعبارة أخرى)، وإلَّا فقد يغدو التخلُّص من كتابٍ واحد كابوسًا حقيقيًا. فهذا الروائي الإسباني خوليو ياماثاريس، الذي يمتلك ثلاث مكتبات -واحدة في شقته بمدينة ليون، والثانية في مدريد، والثالثة في بيته الريفي حيث يمضي فصل الصيف- قد اعترف لي بأنه يترك بعض الكتب على مقعد في محطة الحافلات الواقعة أمام بيته في بعض الأحيان. ثم يعود لاحقًا في موعد الغداء، أو في المساء، فيراها ما زالت باقيةً هناك، بلا مساس. بل إنه في بعض الأحيان يلقي نظرةً من طرف عينه، وهو

في طريق العودة إلى البيت ليلًا، فيجد أن كومة الكتب لم تتناقص، بل تضخّمت وانضمّت إليها كتب الجار الذي يغتنم الفرصة للتخلُّص من كتبه أيضًا.

أما التخلُّص من الكتب بطرائق أكثر عمليّة، فشيء عصيّ على التصوُّر. حكى سلمان رشدي أنه قد شهد عائلات تقبّل الكتبَ المُقدّسة والنصوص الإلهية في طفولته بمدينة مومباي، مثلما كنّا نقبّل كسرات الخبز المتساقطة على الأرض ونحن صغار. ولكن ليس في بيت سلمان رشدي: حيث كانت تُقبّل القواميس والأطلس وكتب إنيد بليتون وكتب سوبرمان المُصوَّرة، وأي شيء.

يعاني جيلي من المتلازمة نفسها: لأن سنوات التعليم والعوز وتبجيل الحرف المطبوع قد أفضَت إلى ظهور ذلك «الچين» الذي يمنعنا من إلقاء الكتب، دع عنك تمزيقها، أو إضرام النار فيها، على الرغم من وجود كتب تستحق النيران المُخلِّصة فور ظهورها في المكتبات.

منذ فترة حظيتُ بفرصة الإنصات إلى الناشر جوزيب لويس مونريال، الذي حكى أنه قد استغرق أعوامًا حتى تعلّم كيف يتخلَّص من الكتب. ولكنه عندما تجاوز العقبة الأولية، لم يصبح قادرًا على التخلُّص منها بعفوية فحسب، بل إنه صار يحتفل بذلك أحيانًا وسط حفل مهيب، يمزِّق فيه الكتب. ولقد قوبِلَت بحفاوة قصةً طريفةً وقعَت له على متن الطائرة التي استقلّها عائدًا من معرض بوينوس آيرس للكتب قبل أعوام: إذ وجد الكتابَ الذي يقرؤه آنذاك سيئًا إلى حدّ جعله يقطع الطائرة من أولها إلى آخرها وهو ينتزع الصفحات مناولًا إياها للمسافرين، الذين كان بينهم عدد كبير من الزملاء المُحرِّرين والكتّاب والوكلاء، ويوصيهم صراحةً بألّا يقرؤوا ذلك الكتاب.

كان الكاتب الإسباني أومبرال يتخلَّص من الكتب ملقيًا بها في المسبح، ولا سيما حين يتلقّى الزائرين. فتبقى الكتب هناك طوال أيام، طافيةً على سطح الماء، تالفةً، منتفخةً كالجثث الهامدة. الأمر الذي يستحضر إلى ذهني صورة بينوكيو عندما ألقى زملاؤه بالكتب في البحر، حيث انطلق السمك يقضمها ثم يهجرها تاركًا إياها تحت رحمة الأمواج.

أما الناشر الأرجنتيني ماريو موتشنيك، فلقد أقام منطقةً حرّةً قرب مدخل بيته

في مدينة برشلونة، حيث كان يترك الكتب التي يمكن للزائرين الاحتفاظ بها فوق الأريكة. بينما يمضي لويس لانديرو بالكتب المُعبأة في الأكياس إلى ساحةٍ تقع قريبًا من بيته، حيث يتركها فوق أحد المقاعد حتى يتمكّن الناس من الاحتفاظ بها. أما الروائي الإسباني أرتورو بيريث ريبيرتي، فيراكم الكتب فوق طاولة هائلة في قبو بيته، هناك حيث يغسل يدَيه من مستقبلها. بينما يلقي بها الشاعر فرانثيسكو بينو في سلة النفايات مباشرةً. في حين يتخلّص خابيير ماریاس من كتبه بإهدائها إلى حارس العقار في بيت والده، ذلك القارئ العظيم...

ويُحكَى عن الكاتب البيروفي برايس إتشينيكي أنه، حين قرأ قصة الكاتب آوغوستو مونتيرّوسو «كيف تخلّصتُ من خمسمئة كتاب»، قد اتَّخذ قراره بالتخلُّص من العدد نفسه تحديدًا كلّما انتقل إلى بيت جديد. وهكذا تخلّص من خمسمئة كتاب في رحلته من ليما إلى باريس، ومثلها في الطريق إلى مونبلييه بعد فترة، ومثلها حين سافر إلى برشلونة، ومثلها عندما انتقل إلى مدريد بعد أعوام. وبذلك تكون هناك مكتبةٌ ضائعة لبرايس إتشينيكي، في موضع ما، تُقدَّر بأكثر من ألفي كتاب، في حال لم يعاود الانتقال مرةً أخرى، بطبيعة الحال.

كما يذكر الناس تلك الطريقة الملحمية التي تخلّص بها الروائي الإسباني إنريكي بيلا ماتاس من مكتبته القانونية، إذ مضى حاملًا إياها في الليل، منهكًا، قاطعًا رحلةً تلو أخرى، غارقًا تحت المطر الأدبي المُتَّصِل، حتى ألقى بها في حاوية النفايات. ولقد حكى ذات مرة كيف ترك في البيت الذي سكنه أعوامًا طوالًا بعضَ صناديق الكتب التي لا تهمّه عندما انتقل لآخر مرة. فتبقَّت وسط الكتب التي سعى إلى التخلُّص منها نسخٌ تحمل إهداءات أصدقائه الكتّاب، ونسخ أخرى تحمل إهداءه أو ملاحظاته هو نفسه، عن طريق الخطأ. سرعان ما ظهرَت تلك الكتب في أحد متاجر الكتب المستعملة في برشلونة، ما أثار استياء أولئك وهؤلاء.

ولكن هناك طريقة أكثر عمليّة تقوم على الالتزام بمبدأ السلامة، فهذا خوسيه لويس كويردا، المخرج السينمائي، أخبرني ذات مرة بأنه قد تخلّص من مكتبته كاملةً في مناسبتَين، إذ باع بعض كتبه وأهدى بعضها الآخر. ثم بدأ يؤلّف المكتبة مرةً

أخرى من البداية.

كم أودّ التحدث إليه حتى أسأله عن ذلك الإحساس بالدوار الذي لا بدّ أنه يصيب المرء متى خلا بيته إلّا من كتابٍ واحد، أو كتابَين!

قبل زمن قرأت أن الكتب المُختزَنة في بيت الرهبنة اليسوعية في بروكسل قد نُقِلَت عامَ ١٧٧٣، حين قُضِي بحلّ اليسوعية، إلى المكتبة المَلَكية البلجيكية، ولكن لم يكُن لها مُتّسع هناك، فحُمِلَت الكتب إلى كنيسة عتيقة، موبوءة بالفئران. وهناك تفتّق ذهن أمناء المكتبة عن مُخطّطٍ لحماية الكتب الأعظم قيمةً، واضعين إياها وسط صحن الكنيسة، مُرتَّبة فوق الرفوف. أما المُجلَّدات التي يمكن الاستغناء عنها، فلقد وُضِعَت متراكمةً على الأرضِ حول الكتب القيِّمة، في دوائر ذات مركز واحد، كي تتمكّن الفئران من قرضها، وبذلك يمكن الحفاظ على الكتب القيِّمة التي استقرّت في المنتصف. إنها الشراهة، إنه الجوعُ بوصفه نقدًا أدبيًا. لا أدري إن كانت تلك الحيلة قد أفلحَت.

## ١٧

# كتابٌ واحد كل ثلاثين ثانية

بدلًا من الشعور بالصدمة، يليق بنا أن نواجه جسامة المشكلة: فالقدرة على القراءة وتخزين الكتب محدودة، بينما القدرة على النشر يكاد لا يحدّها شيء. ذلك أمرٌ لا يرقى إليه جدال. أما الشيء الذي يُحتمَل ألّا نعرفه بدقة، فهو أبعاد المشكلة. ولكن، في أطروحة «الكتب مفرطة الكثرة»، ذلك العنوان الذي ربما جاء مُوفَّقًا، يقدّم الكاتب المكسيكي غابرييل سعيد أرقامًا خليقة بأن تبثّ رعدةً في الأبدان.

طوال المئة عام التي أعقبَت اختراع الطباعة، نُشِر ما يقرب من خمسة وثلاثين ألف عنوان، بمُتوسّط ثلاثمئة وخمسين عنوانًا كل عام، أي كتاب واحد كل يومٍ بالتقريب. ولذا كان المرء، حتى وقتٍ مُتقدّم من القرن السادس عشر، يستطيع التفكير في امتلاك مكتبة كَوْنية، واقتناء جميع الكتب المطبوعة في العالَم بأسره.



الشيء الذي سعى إليه فرديناند كولومبوس، المُؤرِّخ وعالِم الفلك وعالِم الإنسانيات ومُحِبّ الكتب الذي ترك لورثته مجموعةً مُؤلَّفة من ستة عشر ألف كتاب، أي نصف العناوين المطبوعة القائمة على قيد الوجود آنذاك تقريبًا، عندما فارق الحياة عام ١٥٣٩.

ومن جهة أخرى، فلقد صدر ستة وثلاثون مليون كتاب خلال الأعوام الخمسين الأخيرة. كما نجد أن الشاعر الألماني هانس ماغنوس إنتزنسبيرغر قد رسم بانوراما مأساوية، ثُرَى فيها آلات الطباعة الدوارة، المُستخدَمة في طباعة كتب الجيب والنسخ الرخيصة، وهي تعمل أربعًا وعشرين ساعة كل يوم، لأن إيقاف المطبعة ثم تشغيلها من جديد أعلى كلفةً من تلويث الورق: وهكذا كانت الآلات الدوارة تطبع الكتب الموجهة مباشرةً إلى جناح العروض والأسعار المخفضة والأوراق المهملة.

تنشر البشريةُ عنوانًا جديدًا كل نصف دقيقة، مئة وعشرين عنوانًا كل ساعة، أكثر من ألفين وثمانمئة كل يوم، أكثر من ستة وثمانين ألفًا كل شهر. بينما يطالع القارئ المُتوسّط طوال حياته ما تُصدِره سوق النشر في أقل من ثماني ساعات بقليل، أي

في يوم عمل واحد. لو شئنا تحديث مكتبة عالَمية مستحيلة، لاستلزم الأمر ما يعادل ستة وعشرين كيلومترًا من رفوف الكتب كل عام. بل إننا -نحن القُرّاء الذين نشتري الكتب، كثيرًا من الكتب- لا نقتني إلّا جزءًا متناهي الصغر، هزليًا، يكاد لا يُذكَر، مما يُنشَر في إسبانيا، كلّما دفعنا ثمن كتاب، وكلّما غلّف البائعُ كتابًا من أجلنا، أعرضنا بذلك عن شراء باقي الكتب الصادرة: خمسة وستين ألف كتاب كل عام، مئة وثمانية وسبعين كتابًا كل يوم، أكثر من سبعة كتب كل ساعة.

وعلى الرغم من قلة الكتب التي نقتنيها، فما زال لدينا عدد مفرط منها. لو قرأ المرء كتابًا واحدًا كل أسبوع -وذلك يُعتبَر مُعدَّلًا جيدًا للقراءة- لما تجاوز عدد الكتب التي يستطيع أن يقرأها خلال عقد واحد خمسمئة كتاب، ألف كتاب خلال عقدَين، ألفي كتاب خلال أربعة عقود، مع حساب الإجازات والعطلات الأسبوعية وليالي الأرق ورحلات القطار.

يحكي أُمبرتو إيكو أن صحافية قد زارت بيته، فسألته عن عدد الكتب التي يمتلكها. وكما تعلم، سألَته الصحافية: «هل قرأت هذه الكتب كلها؟». أجاب إيكو بالنفي القاطع، فأي قارئ يمتلك حدًّا أدنى من الخبرة يعرف أن: مِن الكتب ما يجب على المرء أن يقرأه، ومِن الكتب ما يجب على المرء أن يكتفي باقتنائه.

ولأن الشيء بالشيء يُذكَر، فلقد فتنَتني قصةُ حكاها الروائي الكوبي غييرمو كابريرا إنفانته، الذي طالما تأثَّرث بصورة مكتبته اللندنية التي تُرَى باللونَين الأبيض والأسود، حيث يظهر منكمشًا في كرسيه، خائفًا أمام التهديد المُحقَّق بأن ينسحق تحت كتبه. في إحدى المرات، زار بيته في لندن المُمثِّلُ أندي غارسيا، فلم يملك إلّا أن يطرح عليه السؤال السحري، مُتعجِّبًا من الرفوف المُكتَظَّة بالكتب: «وماذا عن هذه الكتب، هل قرأتَها كلها؟». أما كابريرا، الذي أطلق سحابة هائلة من الدخان، فأجابه لاهيًا، شقيًا: «نعم، ولكن مرة واحدة فحسب. هدِّئ من روعك!».

بينما نجد أن الكاتب الأرجنتيني إكتور يانوبر، مُؤلِّف كتاب «مُذكّرات بائع كتب»، يضع المسألة في نصابها عندما يقول إن: «بعض الكتب للقراءة، وبعض الكتب للكتب». وهنا يكمن اللغز.

في بعض الأحيان، لا يلبث المرء أن يكتشف الكتب التي لم تُصنَع للقراءة (المراجع، والهدايا المُقدَّمة من الشركات، والموسوعات، والأطروحات المهنية أو الأطروحات التقنية عن القصور أو الهندسة المعمارية المعاصرة). في بعض الأحيان، يكتشف القارئ أن الكتاب الذي يطالعه ليس للقراءة في واقع الأمر، بل إنه للكتاب.

هل يجب علينا، نحن القُرّاء، أن نلتزم بالانتهاء من قراءة العناوين التي نبدأها، حتى يفرّقنا الموت؟ يحتجّ الكاتب الكولومبي ألبارو موتيس بأن عدد الكتب أضخم من أن نهدر الوقت في أشياء لا تهمّنا.

وعلى الرغم من ذلك، نجد أن الكاتب الإيطالي لامبيدوزا، مُؤلِّف «الفهد»، يدافع بقوة عن ضرورة أن يتقن القارئ فنَّ الضجر من الكتب، ويرغم نفسه على قراءة عناوين رديئة بصورة قاطعة، مُتحلّيًا بصبرٍ تُضرَب به الأمثال. إنها فتنةُ الأدب الرديء التي تغوي النفوس.

ولقد قرأتُ أن الكاتب المكسيكي خوان رولفو، لسببٍ لم يعرفه أحدٌ يومًا، قد تعوَّد التوصية بالقراءات المستحيلة، والكتب الرديئة، والمُؤلِّفين الذين يمكن الاستغناء عنهم، والأعمال الركيكة. عرف عنه أصدقاؤه تلك الصفة، فتجنَّبوا مقترحاته. وعلى الرغم من ذلك، فلطالما وقع أحدُ المحيطين به في تلك الورطة عن قلّة فطنة. في حالة لامبيدوزا، قد تلقي معلومتان شيئًا من الضوء على ذلك المسعى المضني من جانبه. أولًا: كان لامبيدوزا رجلًا موسرًا، لديه متسع هائل من الوقت. وثانيًا: دَرَج لامبيدوزا على القراءة في متجرٍ للحلوى، ولذا فمن الجائز أن يكون محيطه قد أضفى على تلك الآراء الأدبية مذاقًا حلوًا.

وبالحديث عن ذلك، فلطالما خرج لامبيدوزا إلى الشارع وهو يحمل كيسًا من الحلوى والقَزع وبعض أعمال شكسبير، لعلّه يُضطَرّ إلى مواساة نفسه عن حدث مؤسف من قبيل: التعثُّر في السير، أو تساقط قطرات المطر، أو تناثر شيء على ثيابه... بينما كان الشاعر الإيطالي بتراركا يسافر مُحمَّلًا بكتاب «الاعترافات»، للقديس أوغسطينوس. كما أكَّد أوسكار وايلد أنه يحمل بعضًا من كتبه أينما ذهب، لعلّه يحتاج إلى قراءة عمل ذكي، على حدِّ قوله. أما الشاعر الإسباني كلاوديو

رودريغيث، فلم ينسَ أن يحمل نسخة من «الكوميديا الإلهية» لدانتي أينما ذهب.

وعلى كل حال، دعونا نتّفق على أن هناك لحظة مِن الهول تنتظرنا عندما نعود إلى الكتاب الذي قرأنا منه نحو خمسين صفحة، ثم هجرناه حتى نقرأ شيئًا آخر، وتخلّينا عنه أسبوعَين أو ثلاثة أسابيع، فإذا بنا قد نسينا تفاصيل القصة وأسماء الشخصيات. ولكن ما العمل إذن؟ أتقضي الضرورةُ بالعود على بدء حقًّا؟ أمِن الممكن أن نحاول استئناف القراءة من حيث تركنا الكتاب واثقين بأننا سوف نلمّ بمجريات الأمور في نهاية المطاف؟

وإزاء هذه المعضلة، يظلّ كثيرٌ من هذه الكتب غير منتهٍ إلى الأبد، بما حوى من فواصل ضائعة في كثير من الأحيان، أو حواف مطوية تفضح الموضع حيث تخلّى القارئ عن الكتاب. لديّ بستانٌ حافل بـ«أنصاف القراءات»، فلقد قرأت «أنصاف أعمال» أوستر وتوم وولف وكارير وموديانو وتابوكي وتامارو. دع عنك المؤلّفين المحليين الذين قرأت «أنصاف أعمالهم» أيضًا، بكل تأكيد.

ولقد اعتُبِر الحال أسوأ عندما كانت الكتب تُنشَر مُتَّصِلةَ الحواف، ما يضطرّ القارئ إلى فصلها بنفسه. أحيانًا تظهر في بعض المكتبات نسخٌ لم تُقرَأ قطّ –تُعَدّ كنوزًا عند هواة الجمع–، ما زالت صفحاتها مُتَّصلة، عدا صفحات قليلة في مطلع الكتاب أحيانًا، وذلك أسوأ.

للقاء الكتب أوان، كما أن للقاء الناس أوان. وعلى المرء أن يتعلّم كيف يؤجّل ذلك الموعد أحيانًا. الكتب مثل قطع الأحجية، فهي إما تلائم المكان حيث تضعها، وإما لا تلائمه، مهما سعينا جاهدين.

أضف إلى ذلك الكتب التي تتقاطع، ولا سبيل إلى بلوغ اتفاق معها.

منذ فترة، نشرَت صحيفةٌ يومية تقريرًا يُسأل فيه اثنا عشر كاتبًا معروفًا عن الكتاب الذي لم يتسنَّ لهم الانتهاء من قراءته. وبين هذه الكتب الملعونة، نجد «دكتور فاوستوس» لتوماس مان، و«الكوميديا الإلهية» لدانتي، و«باراديسو» للكاتب الكوبي ليساما ليما، و«تحت البركان» للكاتب الإنجليزي مالكوم لوري. كما نجد «يوليسيس»

لجيمس جويس، الذي يحتلّ مكانه بين الكتب الملعونة الراقدة قرب الفراش. كما نجد الكاتب الإسباني خوسيه ثيلا وكتابه «لحن ماثوركا على ميتَين»، الذي لم أفلح في تجاوز الصفحة الخامسة أو السادسة منه.

يجب عليّ الاعتراف بأنني قارئ فوضوي إلى حدّ بعيد، فلطالما كان لديّ كتابان أو ثلاثة كتب قيد القراءة. شأني في ذلك شأن الكاتب الكوبي آلِخو كاربنتييه، الذي دَرَج على قراءة أكثر من عنوان في الوقت نفسه: كتاب قصص قصيرة، وآخر طويل يطالعه عندما يجد مُتَّسعًا أكبر من الوقت. دَرَج آلِخو كاربنتييه على كتابة عدة نصوص في آن واحد. كما قال في أحد اللقاءات إنه لو عمل على رواية واحدة، لبلغ حدّ التخمة بكل تأكيد. وهكذا كتب كاربنتييه روايات «الملاحقة» و«الطريق إلى سانتياغو» و«الخطى الضائعة» بالتزامن، فطُرِحَت كلها في السوق في آن واحد تقريبًا. وهذا الكاتب الإسباني رامون غوميث دي لا سِرنا قد طلب أن تُصنَع من أجله طاولة بها ألواح كثيرة قابلة للحلّ والتركيب، حيث يمكنه العمل على عدة مخطوطات يصل عددها إلى ثمانية في الوقت نفسه، بخطّ يده دائمًا، وبالحبر الأحمر الذي يسيل كدماء العامة، على حدّ قوله.

أما أغوستينو راميلي، المهندس والمخترع الإيطالي، فلقد ابتكر في القرن السادس عشر حاملَ كتبٍ دوّارًا، يعمل بالتروس والآليات كالساقية، ويحمل عدة كتب مفتوحة يصل عددها إلى اثني عشر كتابًا، تدور في الاتجاهَين أمام القارئ، فيتمكّن من قراءتها في الوقت نفسه تقريبًا.

وفي كتابه العصي على التصنيف، «حول اليوم في ثمانين عالمًا»، تكلّم خوليو كورتاثار عن «الحجّالة»، كما أطلق على ذلك الاختراع المُتمثّل في قطعة أثاث مُزوَّدة بجوارير صغيرة يضمّ كلٌّ منها فصلًا من رواية «لعبة الحجلة». حيث يتّصل كل جارور بنابضٍ، فلا يكاد القارئ يغلق الجارور بانتهائه من قراءة أحد الفصول حتى ينفتح الجارور الذي يضمّ الفصل التالي من تلقاء نفسه. وهكذا تُقرأ الرواية بترتيب مُحدّد سلفًا. أو يُعاد ضبط النوابض ليغدو الترتيب عشوائيًا تمامًا.

كما أذكر كتاب ماكس آوب «لعبة الأوراق/الرسائل»، الذي صدر على شكل أوراق

اللعب، إذ يتلاعب الكاتب بالمعنى المزدوج لكلمة «carta»، التي تعني باللغة الإسبانية: ورقًا أو رسالة.

يبدو الجانب الأمامي لكل ورقة من أوراق اللعب مزيَّنًا بالرسوم، بينما يحمل الجانب الخلفي رسالة. والرسائل كلها تشير إلى ماكسيمو بايبستيروس، ذلك الشخص الغامض الذي قضى نحبه قبل قليل، ويتحدَّث عنه آخرون كانوا على معرفة به. يوصي الكاتب بأن تُخلَط الأوراق ثم تُوزَّع على القُرّاء كما تُوزَّع أوراق اللعب. وبحسب الأوراق التي يتلقَّاها كل لاعب، يظهر بايبستيروس زوجًا نموذجيًا، أو شريكًا لا غبار عليه، وإلَّا فهو خائن، أو انتهازي، أو شخص لا ضمير له... كل شيء يتبدَّل باختلاف المُتكلِّم، والجانب المقصود من حياة بايبستيروس. وهكذا لا يعرف المرء أبدًا أي ورقة يختار، كما يجري في الحياة.

تتيح لنا «لعبةُ الأوراق/الرسائل» التي ابتكرها ماكس آوب قراءةً مختلفة في كل مرة. لأن الرسائل وترتيب الأوراق لا يتكرَّران أبدًا. وعلى الرغم من ذلك، يربح اللاعب الذي يتمكَّن من تخمين شخصية ماكسيمو بايبستيروس الحقيقية، كما يوضح آوب في التعليمات. أما الشيء الذي يتبقَّى في النهاية، فهو اليقين المرهف بأن الأوراق تحمل إشارات دائمًا.

أنا قارئ هوائي، عصيّ على التوقُّع. لا أدري بالتحديد إلى أي شيء قد تهفو نفسي على الغداء أو العشاء. فوق طاولتي الآن كتاب «سانتا إيفيتا» لتوماس إيلوي، الذي أراوِحُ بينه وبين «السيرة الذاتية لتشيسترتون»، أو بينه وبين كتابِ «حيث لم تكونوا» لأوراسيو كاستيانوس، فضلًا عن «الثلاث عشرة وردة» لخيسوس فيريرو... الأمر رهن بما يتراءى لي في حينه.

وبالحديث عن ذلك، فنسختي من ذلك الكتاب تحمل إهداء فيريرو الذي كتب على الغلاف الداخلي: «من أجل صديقي مارتشامالو. خالص المودة له وللكلمات».

أحتفظ بعدد لا بأس به من الكتب التي تحمل إهداءات أصحابها، علمًا أن أغلبهم من الأصدقاء أو المعارف. هناك اختلافٌ جوهري بين إهداءات المُؤلِّفين الذين لا يعرفونك، وإهداءات معارفك الذين يجمعك بهم ضربٌ من التواطؤ. ما دام المُؤلِّفُ لا

يعرفك إطلاقًا، أو لا يعرفك إلّا بصورة سطحية، فهو عادةً ما يُبدِي لك مشاعر المودة فوق كل شيء.

«إلى خيسوس مارتشامالو. خالص المودة»، هكذا كتبَت الروائيّة الإسبانية آنا ماريا ماتوته في نسختي من «الملك غودو المنسي»، على سبيل المثال. كما كتب الروائي مانويل دي لوبي في نسختي من «حدائق إفريقيا»: «إلى خيسوس، تحية مفعمة بالمودة من المؤلِّف». وبالمثل فعل الكاتب المسرحي الإسباني أنطونيو بويرو باييخو، الذي أحتفظ بكتابٍ له يحمل الإهداء التالي: «إلى خيسوس، مودتي». ولديّ كتابٌ آخر يحمل إهداء الكاتب الإسرائيلي عاموس عوز الذي كتب فيه: «For Jesús, Shalom» [إلى خيسوس، «شالوم»]. لا بدّ أنها تقوم مقام «مودتي» بالعبرية. كما كتب أمين معلوف إهداءً ودودًا في نسختي من «موانئ المشرق»: «Pour Jesús, cordialment» [إلى خيسوس، مودتي]. أوضحتُ له أنني قد قرأتُ جميع كتبه. ولكنه ربما فهم من فرنسيتي العرجاء أي معنى آخر. أما الروائي البرتغالي أنطونيو لوبو أنطونيش، الذي اشتهر بالمراوغة والغموض وصعوبة المراس، فلقد كتب إهداءً متواطئًا في نسختي من «موت كارلوس غارديل»: «مع خالص المودة».

كما حصلَت إحدى الصديقات من أجلي على إهداء غابرييل غارسيا ماركيز، «غابو»، الذي ردّ لها الكتاب «مُبارَكًا»، على حدّ قوله، بعد أن كتب فيه الإهداء الطريف الآتي: «إلى خيسوس، يا خيسوس!»(4).

كما أملكُ كتابًا يحمل الإهداء الآتي لخوان خوسيه مياس: «إلى خيسوس، أحضاني وأرقّ تمنياتي للمستقبل». يبدو الإهداء مختلفًا، واعدًا. ولكني عرفتُ في وقت لاحق أن مياس لا يهدي الكتب إلّا بطريقتَين، الأولى هي التي كانت من نصيبي، أما الثانية فيُبدِي فيها المودة مع إدخال بعض التغييرات الطفيفة: «إلى خيسوس، صداقتي ومودتي».

كما أملك إهداءً بقلم الكاتب الإسباني ألبارو بومبو، يلمح فيه إلى الخدش الذي أورثَتني إياه إحدى قططه غدرًا. وإهداء آخر بقلم لويس لانديرو، رسم فيه بطةً

وغيتارًا وفأرًا وعبّارةَ جُزُرِ البليار. فضلًا عن إهداء آخر جميل بقلم بيلا ماتاس، في نسختي من كتاب «بارتلبي وأصحابه»، رسم فيه صورته المعروفة بالقبعة، وكتب: «إلى خيسوس مارتشامالو، مع أحضان بارتلبي، في ويلينغتون». وذلك في إشارة منه إلى فندق ويلينغتون بمدريد.

تخلق إهداءات الكتب روابط لا تنحلّ، وتسمح للمرء بأن يحكي المغامرات بكل صنوفها. أذكر على وجه التحديد إهداء الكاتب مونتيروسو، الذي حصلتُ عليه في رحلة بطولية إلى الإيسكوريال، حيث كان يلقي درسًا في الجامعة الصيفية. كنتُ على مشارف الموت تحت وطأة الجفاف، لأنني قد أخطأتُ في محطة الحافلات، واضطُرِرتُ إلى السير قرابة نصف ساعة تحت الشمس التي لا ترحم خلال الصيف المدريدي الحارق حتى يكتب لي إهداءً في نسختي من كتابه «الحركة الدائمة»، بخطه الثابت المختلف: «إلى خيسوس مارتشامالو، إليك تذكارًا من صديقك مونتيروسو».

كما أذكر تلك الرحلة المُحيِّرة، المفعمة بالأمل، التي قطعتُها إلى مقرّ مركز نيكاراغوا للكتّاب في ماناغوا، حيث قيل لي إنني ربما (وأضع تحت «ربما» خطًّا) ألتقي الشاعر إرنستو كاردينال، الذي يمرّ بالمكان بين حين وآخر. وبالفعل كان هناك صبيحة ذلك اليوم، فكتب لي إهداءً في نسختي من «إبيغراماس»، قبل أن يعتمر «البيريه» الثوري باختيال حتى ألتقط صورةً له.

أذكر تلك المرة عندما زرتُ ماريو بارغاس يوسا في بيته بمدريد، يوم عيد ميلادي. وفي النسخة التي حملتُها إليه من الطبعة الأولى من رواية «الخالة خوليا وكاتب السيناريو»، كتب الإهداء التالي: «إلى خيسوس، في يوم عيد ميلادك، إليك مني عناقًا مفعمًا بالمودة».

وأذكر حين زرتُ الكاتب الإسباني فيرولوسيو، المُهذّب، الودود، في بيته بمدريد، لأتسلّم نسختي من الطبعة الأولى من كتاب «ألفانوي»، التي تركتُها باسمه لدى حارس العقار قبل أيام حتى يكتب لي إهداء، حيث كتب بخطّ يده المرتعش، الذي ربما جاء مرتابًا أيضًا: «إلى خيسوس مارتشامالو، مُهدى إليك مِن رافاييل سانتشيث

فيرلوسيو».

ولقد اعتُبِر حدثًا غير مُتوقَّع حين قدَّم حفل توقيع في معرض مدريد للكتاب، لأول مرة في حياته، وهو في الثامنة والثمانين من العمر، عام ٢٠١٦. بعد أن ظلَّ يتملَّص حتى ذلك الوقت من لعب «دور الأديب المُشوَّه»، حسبما قال بنفسه. ولكن حفيدته لاورا قد سألَته في ذلك العام إن كان لا يتلقَّى اتصالًا واحدًا من المكتبات. وهكذا تغلَّب على الخجل والحرج ومضى يوقِّع الكتب طوال ساعات أمام جيش القُرَّاء المُتحمِّسين المفتونين الذين احتفلوا معه بأول حفل توقيع له في معرض الكتب. وبالحديث عن ذلك، فلقد كتبَت الصحف أن قارئًا قد حمل إليه نسخةً من رواية «الخراما»، مُجازِفًا بحياته، حتى يكتب له المُؤلِّف إهداءً، فما كان من فيرلوسيو إلَّا أن قلَّب الكتاب بين يدَيه قائلًا:

- «هذا الكتاب في غاية الرداءة».

- «إنه من أجلِ حماتي»، أجاب القارئ باسمًا.

- «آه، حسنًا، سوف أوقِّعه إذن»، ختم حديثه باقتضاب، وأمارات العبوس الطفولي تبدو عليه طوال الوقت، قبل أن يكتب في الكتاب اسمه: «رافاييل سانتشيث فيرلوسيو».

ولكن لا شكَّ في أن أفضل القصص، أو على الأقل واحدة منها، هي قصتي مع صاحب نوبل الجنوب إفريقي ج. م. كوتزي، الذي تركتُ له نسخة من كتابه «سبع قصص أخلاقية» في مكتب الاستقبال بفندق ويلينغتون مرفقةً برسالة أطلب فيها أن يكتب لي إهداءً، بإنجليزية ابني خوليو المُتقَنة. كان كوتزي قد حضر إلى هنا للمشاركة في عدة فعاليات في إطار معرض مدريد للكتاب، حيث وقَّع مئات الكتب. مررتُ بفندق ويلينغتون بعد أيام حتى أتسلَّم نسختي، فلم أجدها. وأخبرني العاملون بأن كوتزي –الذي أعتقد بأن اسمه يُنطَق «كوتشي»- قد غادر الفندق صبيحة ذلك اليوم ولم يترك من أجلي كتابًا واحدًا في مكتب الاستقبال. اتَّفقنا على أن يفتِّشوا الحجرة، لعلَّه قد نسي الكتاب هناك. ولكنهم أكَّدوا لي في تلك الليلة أنهم لم يعثروا عليه.

حسبتُ الكتابَ قد اختفى –وظننتُ أن الكاتب قد وضعه في المكان الخطأ، أو نسيه في حقيبته– وإذا بي أتلقّى رسالة من مالكة مكتبة لوس إديتوريس بمدريد، تقول فيها إن لديها نسختي بإهداء الكاتب، وإن في مقدوري المرور لتسلُّمها متى شئتُ من المكتبة التي تقع قريبًا من فندق ويلينغتون. ثم أخبرَتني المالكة بأن كوتزي قد حضر إلى هناك ومعه الكتاب سائلًا إن كانوا يعرفونني.

لا أدري ما الذي حمله على الاعتقاد بأنهم قد يعرفون من أكون في تلك المكتبة. ولكن الحقّ أنهم يعرفونني تمام المعرفة. هكذا وصل إليّ الكتاب بلا تعقيدات داخل ظرفٍ يحمل اسمي، احتفظتُ به أيضًا. في حين مضَت أسطورتي تكبُر على غير المُتوقَّع عندما بدأت الألسنة تتناقل أن كوتزي، الودود، الوديع، قد دخل ذات مرة إلى إحدى المكتبات سائلًا عني أنا!

لا أدري كم كتابًا أمتلكُ بإهداء مُؤلِّفه، ولكن أعدادها بدأت في التزايد: غابرييل غارسيا ماركيز، وماريو بارغاس يوسا، وروسا مونتيرو، وميغيل ديليبيس، وإكتور آباد، وجميع كتب المُؤلِّف الذي يثير في نفسي الإعجاب خوان إدواردو ثونييغا، إلّا كتابَين. على مدى أعوام، رحتُ أفتّش عن كتبه القديمة النافدة بمختلف طبعاتها، وجمعتُ أعماله شبه الكاملة التي كنتُ أحملها إليه كلّما التقينا، أو أتركها في بيته أمام منتزه ريتيرو، حتى يوقّعها من أجلي. وظللتُ على تلك الحال حتى أتمّ عامه المئة، عندئذ قال لي: «متى بلغتَ من العمر مئة عامًا، حقّ لك القول إنك لن توقِّع مزيدًا من الكتب»، ولقد اتّخذ قراره بالاستفادة من هذا الامتياز.

كما صرتُ أمتلك مجموعةً متواضعة من الكتب التي تحمل إهداءات أصحابها، وجدتُها في أسواق التحف والمزادات ومتاجر الكتب القديمة: الكاتب الإسباني بيو باروخا، صاحب الخطّ الصغير الثابت الكسول. والشاعر التشيلي بابلو نيرودا، الذي تعوّد أن يكتب بالحبر الأخضر والخطّ الكبير، مثل خطّ رامون، الذي يكتب بالحبر الأحمر ويُكثِر من الصفات الطائشة. والشاعر الإسباني خوان رامون خيمينيث، صاحب الخط المُنمّق بشيء من الزخارف العصية على الفهم.

غالبًا ما تحتفظ إهداءات المُؤلِّفين بأسرار مجهولة وقصصٍ إيحائية. يُحكَى أن

حفل توقيع قد أُقيم لبورخيس في معرض مدريد للكتاب عام ١٩٨٥، إذ حضر إلى إسبانيا لتقديم ديوان «المُتآمِرون». كان الناظر إليه في موقعه بأحد الأجنحة يراه وهو يمرِّر القلم قليلًا على الكتب التي يمدّها إليه مساعدُه، راسمًا خربشةً مرتجفة، مُتأثرًا بالعمى شديد الوطأة الذي أصيب به. تزايدَت أعداد القُرّاء الذين اصطَفّوا مُترقّبين دورهم، ومضى الكاتب يوقِّع حتى تجاوز عدد الكتب المُوقَّعة ثلاثمئة كتاب –ثلاثمئة وثلاثة وثلاثين، حسبما نشرَت الصحف في اليوم التالي– عندئذ قال بورخيس إنه لن يوقِّع مزيدًا. يبدو أنه رقمٌ قبلاني(5)، رآه بورخيس ملائمًا، فما كاد يصل إليه حتى احتفظ بقلمه وغادر برفقة مساعديه.

وهناك، في الجناح، كان صديقي خوسيه لويس ميليرو يراقب بورخيس عن بُعد وهو يكتب الإهداءات. يتذكّره صديقي ضئيلًا، أنيقًا، رصينًا. ويتذكّر كيف استرعى انتباهه أن بورخيس لم يبدُ كمن يكتب أو يوقِّع، إذ كاد يكتفي برسم علامة: نقطة وشرطة أعلى الجانب الأيمن من الصفحة. اضطُرّ صديقي إلى المغادرة من دون أن يحصل على علامة بورخيس. غير أنه، بعد أعوام، حصل على واحد من الكتب الثلاثمئة وثلاثة وثلاثين التي وقَّعها الكاتب يومذاك. إذ تخلّى صاحب الكتاب الأصلي عنه، والآن بات صديقي يحتفظ به في مكتبته.

الحقّ أن إهداءات المُؤلّفين تنشئ رابطًا بين الكاتب والمُهدَى إليه. وكلّما ظهرَت نسخة مُهداة في أحد متاجر الكتب القديمة، حامَت حولها شبهات الصداقة المغدورة.

ذات مرة، وفي واحدٍ من أكشاك الكتب القديمة المُطِلّة على نهر السين، عثر الكاتب المكسيكي أرتيميو دِل بابيه أرسيبي على كتابٍ يحمل إهداءه («مع خالص المودة»، كما ورد في الصفحة الأولى). فما كان منه إلّا أن اشتراه وأرسله مرةً أخرى إلى الصديق الذي تخلّى عن الكتاب، مُضيفًا إلى الإهداء الأصلي واحدًا جديدًا، جاء فيه باقتضاب: «مع خالص المودة المُتجدِّدة».

وقبل سنوات، جرى على كثير من الألسنة خبر الخصومة التي دبّت بين الكاتب الأمريكي بول ثيروكس وصاحب نوبل ف. س. نيبول، حين عثر الأول على عدد من

الكتب التي سبق أن أهداها إلى نيبول في قائمة المعروضات بأحد متاجر الكتب الباريسية، إذ باعها الأخير إلى مالك المتجر بأكثر من ألف وخمسمئة دولار، كما اعترف له.

أذكر أن خابيير ماریاس، حين زرث مكتبته قبل أعوام، قد أطلعني على نسخة من «أنشودة البطولة» لنيرودا، مُهداة إلى غييرمو كابريرا إنفانته. كانت النسخة تنتمي إلى مكتبة كابريرا في مدينة هافانا، التي اضطُرّ إلى التخلّي عنها حين سافر إلى المنفى. ثم ظهرَت النسخة معروضةً للبيع بثمن فلكي في متجر كتب قديمة بلندن. طلب كابريرا من ماریاس -زبون المتجر- أن يسعى إلى التحقُّق من مصدر الكتاب. فما كان من ماریاس إلَّا أن اشترى النسخة حتي يهديها إلى كابريرا، الذي رفض أن يقبل الهدية. وعلى الرغم من ذلك، فلقد اتَّفق كلاهما على أن إهداءً جديدًا خليقٌ بأن يسبغ عليها المشروعية، مع الأخذ في الحسبان أنها نسخة مسروقة من مكتبة كابريرا في كوبا. وهكذا يحمل الكتابُ إهداء نيرودا إلى كابريرا، وإهداء كابريرا إلى خابيير ماریاس. نهاية سعيدة.

كنا نتحدَّث عن مقدار الكتب التي يمكن قراءتها في آن واحد. وقلتُ إنني أقرأ الآن أربعة كتب، أضيفُ إليها كتابًا آخر لدواعي العمل، وأحيانًا كتابَين أو ثلاثة، فضلًا عن رفِّ الواجبات، و«قاعة الانتظار» المُتمثِّلة في ثلاثة أكوام من الكتب تتراكم في هذه اللحظة فوق البساط، على مقربة من الفراش، وتُنذِر بالسقوط مُحدِثةً دويًا هائلًا عند أول بادرة سهوٍ من جانبي. كما تعوَّدتُ أن أحمل كتابًا آخر، جوَّالًا، أو عدة كتب ليسَت بالغة الضخامة، بل إنها غالبًا ما تكون من كتب الجيب شديدة التحمُّل -أحدها من دواوين الشعر دائمًا- أطالعها في المترو أو الحافلة.

بعض الناس يفهمني على أكمل وجه، وبعضهم قد يحسب الأمر غرابةَ أطوارٍ أو ضربًا من الشطط. لا أدري من قال إن القراءة من الأعمال الأشدّ أنانيَّةً، ووصفها بأنها أمرٌ شخصيٌ على نحوٍ راديكالي، إذ لا يستطيع المرء أن يقاسم الآخرين إياها. «القراءة خطيئةٌ بلا عقاب»، كما قال الكاتب الفرنسي فاليري لاربو، الذي وُفِّق في قوله كل التوفيق.

تجمع المرء بالكتاب صلةٌ فريدة من نوعها. وكلٌّ يتناولها بطريقة مختلفة. تعوَّد الشاعر بيثنتي أليكساندري أن يقرأ على الأريكة التي يمضي معظم يومه مستلقيًا عليها. بينما كان الكاتب أثورين يقرأ وقد غاص في مقعدٍ له مسندَان، وأولى النافذة ظهره، وغطّى ساقَيه، على مقربة من الطاولة المفروشة والموقد. أما الشاعر خورخي غيين، فلقد دَرَج على القراءة في بيته بمالاغا، أمام النافذة التي تطلّ على البحر وتبثّ في نفسه شعورًا بأنه يعيش في لوحةٍ لماتيس. بينما تعوَّد الشاعر خوان رامون خيمينيث أن يقرأ في صمت، صمتٍ مطبق، بل إنه قد بطَّن الحجرات حيث يعمل بالجص والقماش لئلّا ينغِّص الضجيجُ حياته وقراءته. أطلق عليها «حجرات خرساء». ولكن لعلّ الأدقّ أن تُسمَّى «حجرات صمّاء». كان خيمينث، غريب الأطوار، يغسل يدَيه ثلاث مرات أو حتى أربع مرات، آخرها بالكولونيا دائمًا، قبل أن يلتقط ديوانًا لأحد شعرائه الأثيرين من الخزانة حيث يحتفظ بها (كثيرًا ما يكون ذلك الشاعر الفرنسي بول فرلان).

كما قرأتُ أن بودلير قد عانى حساسية من التلوُّث الضوضائي بصفة خاصة، ومال إلى استخدام العزل الصوتي وألواح الفلين بالقدر نفسه. ويُحكَى أن فوكنر قد ترك عملًا لدى مكتب بريد جامعة ميسيسيبي لأن إقبال المشترين على طلب طوابع البريد لم يسمح له بالتركيز في القراءة.

وعلى الطرف النقيض نجد أن الشاعر الإسباني خوسيه إييرو لم يكتفِ بالقراءة وسط الضجيج، بل إنه كان يكتب في حانة صاخبة على مقربة من بيته، في سانتاندير، هناك حيث وُضِعَت بعد موت الشاعر لافتة جاء فيها: «هنا ينظم خوسيه إييرو قصائده»، وظلّت هناك حتى تبدّل مالك الحانة.

# ٧

# كتب مهترئة

مِن المُؤكَّد لديّ أن كل امرئ يترك العنان للهوس والهواجس في علاقته بالكتب. منذ وقتٍ ليس بعيدًا، قيل لي إن الروائي البرتغالي أنطونيو لوبو أنطونيش يدسّ رأسه بين الصفحات حتى يتنشّق الورق، كما كنا نفعل بالكتب الدراسية طوال سنوات، ما جعل مرحلة البكالوريوس تقترن عندي برائحة الورق الجديد والحبر الصناعي. حتى الشاعر الإسباني لويس ثيرنودا كان يثمَل برائحة الحبر، ويذهب أحيانًا إلى مطبعة صديقه، حيث احتفظ ببدلة عملٍ -قالت الألسنة الخبيثة إنها من الحرير الأزرق، ولكني لا أصدّق ذلك- لمُجرَّد أن يتنشَّق تلك الرائحة النظيفة، رائحة الورق المطبوع، التي لا يخطئها أحد.

من الجدير بالفضول ذلك الاهتمام الذي يوقظه عالَمُ النشرِ في كثيرٍ من الكُتّاب، فهذا والت ويتمان قد اشتغلّ بصفّ الحروف لدى مطبعة صغيرة في بروكلين، واستغلّ معارفه لصفّ الطبعة الأولى من «أوراق العشب» بنفسه. مثله كمثل الشاعر الفرنسي جورج دوهاميل، الذي تعلَّم حرفة التنضيد وحرَّر ديوانه الأول بنفسه. أما في إسبانيا، فنجد أن خيمينيث كابابيرو -صاحب الأطوار الغريبة- قد ألَّف كتاب «مُدوَّنات مغربية لجندي» في المطبعة المملوكة لوالده خلال أوقات الفراغ.

كما نجد أن الكاتب الإسباني خوسيه بيرغامين قد هجر دراسةَ القانون لبضعة أشهر حتى يتعلَّم طريقة عمل آلات الطباعة عن قرب.

وبالعودة إلى رائحة الحبر، فهناك قصة فاتنة تُحكَى عن الكاتبة نوريا آمات، التي كانت تجمع كتب القدّاسات الإلهية، وتستطيع أن تميّز كل واحد منها مغمضة العينَين، من دون أن تلمس الكتاب، بمُجرَّد أن تتنشَّق العطر الذي ينبعث من صفحاته. تبدو لي تلك القدرة الخارقة من المزايا العظيمة.

منذ سنوات، بدأتُ أُعِدُّ مشروعًا عن مكتبات الكُتّاب، ما يجعلني أقتربُ من بيوتهم، وألتقط صورًا فوتوغرافية للحجرات حيث يُحتفَظ بالكتب. زرتُ عشرات من

المكتبات: مكتبة خابيير ماریاس، حيث تتناثر تماثيل الجنود المصنوعة من الرصاص على الرفوف. ومكتبة فِرناندو ساباتير، التي تتقاسمها الكتب ومئات الدمى الصغيرة والبطاقات البريدية العتيقة وصور الخيل. ومكتبة كلارا خانيس، الحافلة بالمعادن والحفريات. ومكتبة الكاتبَين إلبيرا ليندو وأنطونيو مونيوث مولينا التي تمتدّ لتشغل جزءًا لا بأس به من البيت. ومكتبة الكاتب بيثنتي مولينا فوش، الذي يستأجر شقةً من أجل الكتب وحدها. ومكتبة برناردو أتشاغا، في بيته بمقاطعة ثالدوندو، التي تبدو مثل قبو السفينة، بينما يتراءى برناردو مثل قبطان السفينة العجوز في الليالي العاصفة...

من شأن زيارة مكتبات الآخرين أن تفسّر فوضاهم وهواجسهم، كما أنها تضيف هواجس جديدة إلى هواجسهم المألوفة دائمًا.

يجب عليّ الاعتراف بأنني صاحب هواجس في علاقتي بالكتب، شأني شأن الجميع. أما كيف تبدّلَت هواجسي بمضي الأعوام، فذلك شيء يدعو إلى الفضول. والحقّ أنني لا أدري إن كانت قد تبدّلَت إلى الأسوأ أم الأحسن. كنتُ في الماضي أمهرُ كلَّ كتابٍ أقرؤه بتوقيعي، مع ذكر التاريخ والمكان، ما لم يكُن مدريد. ثم أمسكتُ عن ذلك لبعض الوقت، والآن صرتُ أطبع الكتاب بختمٍ خاص، أضيِّق الخناق على أحد الأصدقاء الفنانين حتى يصمِّمه من أجلي كلَّ عام. أجدُ فتنةً في ذلك الطقس الذي يتكرَّر في يناير من كل عام، حين أبدِّل الختم الجديد بالقديم، وكأن مضي الأعوام يعني مضي الأختام أيضًا. ولذا تجد في بيتي كتبًا مُوقَّعة، وأخرى مختومة، وأخرى نظيفة، وأخرى تتخلَّلها الخطوط والملاحظات، وأخرى تخلو منها، كما تجد كتبًا مُغلَّفة وأخرى بلا أغلفة. أما تلك التي دوَّنتُ فيها بعض الملاحظات من أجل المستقبل، فشديدة الاستثنائية. على سبيل المثال، في نسختي من «رقَّة التنين» للروائي الإسباني إغناثيو مارتينيث دي بيسون، تلك النسخة التي شقَّ عليّ العثور عليها كثيرًا، كتبتُ لغزًا من شأنه أن يستأثر بفضول قارئه، في أكتوبر من عام ١٩٨٨: «لطالما انهمرَت الأمطار في السادسة والنصف». التعقيب الذي لا يرقى شكٌّ إلى عمقه الفلسفي، ولكني لا أملك إضافة شيء واحد عن مغزاه!

منذ عامَين بدأتُ ألصق طابع بريد في كل واحد من كتبي. حين فارقَت أمي الحياة واضطُرِرنا إلى إخلاء بيتها ظهر في أحد جوارير الخزانةِ صندوقٌ يضمّ مجموعة الطوابع التي جمعتُها أنا وأخي بِدرو في الطفولة. إنها مجموعة عبثية بالية مُؤلَّفة من طوابع مُكرَّرة، رديئة، لا قيمة لها، اقتُطِع أكثرها من الرسائل أو بطاقات البريد، ولكنها كانت تُردِّد في أسماعنا أصداءً من أمكنة غرائبية بعيدة: مدغشقر، والهند، وبيرمانيا... فاحتفظَت بها أمي في ظروف مصنوعة من ورق مانيلا، زرقاء اللون، ما زالت تحمل الكلمات الآتية مكتوبةً بخطّ يدها: سويسرا، ألمانيا، فرنسا، الاتحاد السوفييتي... أتذكَّر ذلك الزمن، قبل أن نسافر إلى أي مكان، عندما كنا نسافر بالطوابع التي ألصقها الآن في أغلفة كتبي الداخلية، فتسري في بدني رجفةٌ.

يحتفظ كلُّ كتابٍ في جوفِه بآثار القارئ الذي كانه المرء في لحظةٍ من لحظات حياته، ما يجعل إعادة قراءة الكتب أشبه بالسفر عَبر آلة الزمن. إذ يجد المرء ملاحظات وقصاصات وأزهارًا مضغوطة ورسومًا وخطوطًا تضعه أمام القارئ الذي كانه في الماضي.

«ولماذا وضعتُ خطًّا هنا؟»، يسأل القارئ نفسه بعقلانية.

كنتُ في ما مضى أتوخّى الحذر البالغ لئلّا يهترئ التجليد أو تظهر الآثار على ضلع الكتاب من فرط الاستخدام. أما الآن، فصرتُ أفضّل الراحة في أثناء القراءة بوجه العموم، وإن تأثَّرت سلامة الكتاب المادية. ومع ذلك، يجب عليَّ الاعتراف بأنني قد اشتريتُ كتابًا لمُجرَّد أن نسختي السابقة قد اهترأت بشدّة.

كان الشاعر داماسو ألونسو يقول عن الكتب إنها «تهترئ»، ويمتنع عن إعارة الآخرين كتبه لأنها تُرَدّ إليه مهترئة، على حدّ قوله، الأمر الذي وجده داماسو عصيًّا على الاحتمال تمامًا.

ولكن أسوأ الأمور ألّا تُرَدّ لك الكتب أبدًا، لا أن تُردّ لك مهترئة. لكل منا ذكرى سيئة مع الكتب التي أعرنا الآخرين إياها، فضاعت. في حالتي، فقدتُ نسخةً من «متاهة الزيتون»، لميندوثا، استعارها زميلُ دراسةٍ قبل أعوام، فلم أستردّها قطّ، كما لم أستردّ نسخةً من «قصة موت مُعلَن» لغارسيا ماركيز، استعارها صديقٌ آخر لم أعاود

رؤيته. آهٍ!

تروقني الكتب العتيقة. لا أقول المهترئة، وإنما المُستعمَلة. بل إن واحدة من هواياتي التي أستطيع البوح بها تكمن في زيارة متاجر الكتب القديمة، حيث أقضي الساعات وأنا أفتّش الرفوف مُحاوِلًا العثور على واحد من تلك الكنوز التي تُنسَج حولها أساطير باعة الكتب المستعملة.

مِن المعروف أن حتى أولئك الأوسع خبرةً والأكثر فطنةً ينسلّ من بين أيديهم كتابٌ نادر أو جدير بالفضول أحيانًا: طبعة أولى، أو نسخة قيِّمة من كتاب صدر في طبعة محدودة، أو كتاب يحمل ملاحظات مُدوَّنة في الهوامش أو تعقيبات، أو نسخة تحتفظ في جوفها باكتشافاتٍ صغيرة وآثارٍ وإشاراتٍ تدلّ على صاحبها الأسبق.

يستأثر بالمرء الفضول ويحدوه لمعرفة الشخص الذي كان ينتمي إليه الكتاب من قبل، ويدفعه أحيانًا إلى معرفة التقلُّبات التي طرأت على الكتاب منذ استقرّ في إحدى المكتبات الخاصة حتى وصل إلى رفوف التخفيضات بمتجر للكتب القديمة.

ثم تأتي البقية: أي الأشياء الفريدة التي تظهر في الكتب. لقد عثرتُ على تذاكر ترام وأتوبيس عتيقة، وبطاقات مراهنة قديمة، وصور بطاقات هوية لمجهولين، وأوراق صغيرة مُدوَّنة، وفواتير. بل إنني قد عثرتُ ذات مرة على مخطط رسم قلب تظهر فيه بعض الاضطرابات مُشارًا إليها باللون الأحمر، ويجب عليّ الاعتراف بأنه قد أثار في نفسي توجسًا طفيفًا.

في معرض الكتاب القديم بمدريد، خلال موسم الربيع الماضي، عثرتُ على كتابٍ للويس ثيرنودا، «مختارات شعرية»، تحمل الصفحة الأولى منه كلمات متقاطعة أو كتابة تخطيطية غامضة. مهما يكُن ذلك الشيء، فلم يتمكّن أحد من تفسيره حتى هذه اللحظة. كما عثرتُ في ديوان لكفافيس على نيجاتيف يتبيَّن الناظر إليه قبالةَ الضوء فتيات بالزيّ المُوحَّد أمام أحد الأبنية، وإن لم تواتِني الجرأة على تحميض الصور. كما وجدتُ شيكًا مصرفيًا على بياض قبل فترة، في كتاب «عالَم صغير» لدافيد لودج. أفكّر في استخدامه ذات يوم، لو ظلّت الأزمة تضرب أوروبا بقوة.

الأمر الذي يجعلني أفكّر في عدد الأشخاص الذين يحتفظون بالنقود في الكتب، مثلما كان يفعل صديقنا لامبيدوزا، الذي أكّد مازحًا بقوله إن كنزه الأكبر يكمن في كتبه. كما اعترف لي الكاتب المكسيكي سِرخيو بيتول بأنه قد استخدم كتبه كالخزائن لأعوام طوال، ولا سيما كتب موليير، عندما شغل منصبًا دبلوماسيًا في بعض بلدان أوروبا الشرقية، على الجانب الآخر مما سُمّي آنذاك بالستار الحديدي. «ومَن يفتّش عن النقود بين دفتَي (المريض الوهمي) أو (طبيب رغم أنفه)؟»، سألني، فأردفتُ: «أو (البخيل)؟»، ذلك العنوان الذي لا يبدو غريبًا عن المصارف.

قبل قليل، حكى لي أحدهم أن ورقة مالية أو اثنتَين قد ظهرتا في المكتبة الخاصة بخوليو كورتاثار (التي تُقدّر بأربعة آلاف كتاب تقريبًا) حين وصلَت المكتبة إلى مؤسسة خوان مارتش التي احتفظَت بها في مدريد. كان صاحب «لعبة الحجلة» قد نسي الورقتَين الماليتَين هناك، مُخبّأتَين بين طيات الكتب.

وهنا تكمن مشكلة الاحتفاظ بالنقود في الكتب، إذ يجازف المرء بفقدانها إلى غير رجعة. أذكر أنني، لدى عودتي من رحلة إلى نيويورك قبل سنوات، قد احتفظتُ بورقة من فئة الخمسة دولارات في أحد الكتب، لأنني لم أرغب في طيها، وما زلتُ لم أنجح في استعادتها حتى الآن.

مضيتُ أبحث عنها في آخر كتب قرأتها أو رجعتُ إليها أو رتّبتُها بعد عودتي من السفر، ورحتُ أفتّش في الذاكرة. غير أنني لم أجد طريقة واحدة للعثور عليها.

ومن بين جدالات الكتب المحتدمة، نجد جدالًا آخر بشأن ما يجوز وما لا يجوز فعله بالكتب. هل يمكن وضع الخطوط تحت الكلام؟ أو تدوين التعقيبات في الهوامش؟ هل يمكن استخدام قلم الحبر، أم يجب الاكتفاء بقلم الرصاص؟ هل يمكن طيّ حافة الصفحة إشارةً إلى الموضع الذي توقّفنا عنده؟

لقد تربّى أبناء جيلي على فلسفة تبجيل الكتاب، كما حكيتُ من قبل. أذكر أن كل كتاب كان يُغلّف قبل القراءة في بيتي. وبطبيعة الحال، لم يُسمَح بكتابة شيء أو رسم إشارة واحدة في الكتاب. ومن المُؤكّد أنني لم أتمكّن من رسم الخطوط في كتاب واحد حتى زمن قصير، بما في ذلك الكتب التي أقرؤها لدواعي العمل

والتوثيق، ما لم أستخدم قلم الرصاص. كنتُ أترك في الكتاب ملصقًا أو قصاصة في إشارة إلى الصفحة عندما يثير اهتمامي شيء في الكتاب، أو ربما أترك علامةً طفيفة، طفيفة إلى الحدّ الذي يجعلني أعيد قراءة الصفحة كاملةً حتى أعثر على الشيء الذي أثار اهتمامي.

أما الآن، فصرتُ أفاجئ نفسي بطي حواف الصفحات أكثر فأكثر، أو كتابة التعقيبات، أو التخطيط، أو تدوين الملاحظات، أو رسم الأسهم، مع أنني أستخدم قلم الرصاص دائمًا. حتى هذه اللحظة.

كما يرى المفكّر الأمريكي جورج ستاينر أيضًا أنه لا يمكن للقارئ أن يطالع كتابًا ما لم يكن قلم الرصاص في يده، أو خلف أذنه. ولقد قرأتُ قبل زمن أن ستيفنسون كان يحبّ الخروج للقراءة في الحقول، حاملًا في جيبه الأيسر كتابًا، وفي جيبه الأيمن دفترًا خاويًا لتدوين الملاحظات. أما كورتاثار، فكان يملأ كتبه بالملاحظات والتعقيبات المكتوبة بقلم الرصاص وقلم الحبر وقلم التحديد وأي شيء في متناول يده، ويدوّن بالفرنسية أو الإنجليزية أو الإسبانية، حسب اللغة التي يقرأ بها. بخلاف مالارميه، الذي لا تتحدّث كتبه سوى الفرنسية، على حدّ قوله.

أحبّ كورتاثار محاورةَ المؤلّفين عَبر الكتب، فمضى يهنّئهم أو يجادلهم كاتبًا في الهوامش كلمات بالفرنسية والإسبانية من قبيل: «كلا»، أو «حسنًا»، أو «هكذا»، «هو ذاك!». أو تعليقات أكثر عمليةً كهذا الذي دوّنه في نسخته من «أعترف بأنني قد عشت»، لنيرودا، حيث يضيق ذرعًا بتصحيح الأخطاء الإملائية، فيكتب في إحدى الصفحات مشيرًا إلى المحرّر: «أيّ طريقة في تصحيح المخطوط، سحقًا!».

ولقد بلغَتني قصةٌ مدهشة عن كورتاثار، قصة مكتبته الطائرة المؤلّفة من الأوراق المنزوعة، في إيطاليا، حيث كان يسافر مع زوجته آورورا على متن القطار في أواسط الخمسينيات. تعوّد كلاهما شراء الكتب الرخيصة وكتب الجيب من متاجر محطات القطار استعدادًا للسفر، لئلا يصبح لزامًا عليهما حمل الأمتعة غير الضرورية. كانا يشتريان عنوانًا واحدًا، ويقرآنه في ما بينهما. فيبدأ خوليو كورتاثار في أغلب المرات، وما إن ينتهي من قراءة صفحة حتى ينتزعها من الكتاب ويمرّرها إلى آورورا

الجالسة إلى جواره، التي تلقي بالصفحة من النافذة حالما تنتهي من قراءتها.

وهكذا، فهناك مكتبةٌ سريَّة ضائعة لكورتاثار في مكان ما. ومن أجل العثور عليها، ربما كان علينا أن نتتبَّع مسارات القطار في كل أرجاء إيطاليا، من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، فنلملم الصفحات التي ألقى بها من نافذةِ القطارِ خوليو وآورورا، آورورا وخوليو...

وبالحديث عن ذلك، فما زلتُ أحتفظ بصفحة من النسخة الخاصة بالشاعر الإسباني كلاوديو رودريغيث من «الكوميديا الإلهية»، التي تساقطَت أوراقها ودفتاها من فرط الاستخدام. تبدأ الصفحة على النحو الآتي: «وهكذا، من جسرٍ إلى جسر، ما زلتُ أتكلَّم...». أهدَتني إياها زوجته، فاحتفظتُ بها وكأنها كنز.

وبالعودة إلى الأخطاء الإملائية، أذكر كتابًا للمؤلِّف الإسباني لأندريس بيرلانغا بعنوان «هذا العالَم»، حيث فتَّش الكاتب عن الأخطاء التي يعرف بوجودها، وصحَّحها بالقلم قبل أن يهديني الكتاب. رأى أنه لو صحَّح الأخطاء بالقلم، استطاع أن يمحو وصمةً كبرى، لا تُغتفَر، وإن ترك بذلك علامةً في الكتاب.

كما كان يفعل الشاعر بِدرو ساليناس، مُسلِّمًا أمره، عندما يتلقَّى نسخه من الدواوين الحافلة بالأخطاء من المطبعة.

فَقَد ساليناس كتبه كلها إبان الحرب الأهلية. في يونيو من عام ١٩٣٦، أوصد باب بيته مُتَّجِهًا إلى سانتاندير، حيث شغل منصب أمين عام الجامعة الصيفية. ولكنه لم يعُد مرةً أخرى. ظلَّ البيتُ مُوصدًا لبعض الوقت، ثم احتلَّه اللاجئون هربًا من شتاء الحرب الذي لا ينتهي، فضاع كثير من محتويات البيت (لوحات، قطع أثاث، كتب، أوراق...).

قبل سنوات، في متجرٍ للكتب القديمة، عثرتُ على واحد من كتب ساليناس، «الأدب الإسباني» لجين كاسو، وبه إهداء جميل ودود: «**إلى بِدرو ساليناس، العزيز، العظيم، مع وافر امتناني لترحيبك بأمي، وحلوى اللوز، والأشعار. صديقك دائمًا، جين كاسو**».

في مكانٍ ما، يجب علينا أن نتحدَّث عن الكتب المفقودة، المنسية، تلك التي نتركها من دون قصد في الفنادق والقطارات، الكتب التي تضلّ الطريق في أثناء الانتقال من بيت إلى آخر، والكتب المهجورة في بيوتٍ نرحل عنها إلى غير رجعة.

حتى الكاتب رامون غوميس دي لا سِرنا فَقَد كتبه، إذ عجَّل بالرحيل عن إسبانيا مُتَّجهًا إلى بوينوس آيرِس وقد هالَته الدماء والمسدسات المُطِلّة من الأحزمة. وحين أوصد باب البرج الخاص به في شارع بيلاثكيث -حيث تُضاء الأنوار فجرًا في كثير من الأحيان، وكأنه فنار- سلَّم حارسةَ العقار مفتاحه قائلًا: «انتظري سبعة عشر يومًا، ثم افعلي ما شئتِ بالبقية الباقية». لم يُعرَف ماذا حدث لكَوْنه الخاص يومًا، أو كيف انتهى ذلك الكَوْن المبعثر المُؤلَّف من المرايا والأشياء والدمى المصنوعة من الشمع.

كما تعرَّض للقصف بيت الكاتب بيو باروخا الذي يقع في شارع مينديثابال، وبيت الكاتب خوانِ تشاباس في شارع فوينكارال. وهناك احترقَت كتبهما، ومخطوطاتهما الأصلية، ومراسلاتهما...

كان الشاعر بيثنتي أليكساندري يسكنِ في «شاليه» بشارع بيلينتونيا، في منطقة قريبة من المدينة الجامعية بمدريد. هناك حيث تحوَّلَت المنطقة إلى جبهة قتال حالما اشتعلَت الحرب الأهلية. فاضطُرّ إلى إخلاء بيته والذهاب للعيش في بيت أعمامه بشارع إسبانيوليتو. وحين هدأت جبهات القتال، تمكَّن من الحصول على إذن بالمرور، فمضى يدفع عربة يدٍ برفقة صديقه الشاعر ميغيل إرنانديث ماضيًا إلى بيته الذي كاد يتهدَّم تحت وطأة المدفعية والقذائف ليرى ما الذي يمكن إنقاذه.

عاد بالعربة شبه فارغة، وقد خلَت إلَّا من ثلاثة أو أربعة كتب، كلها مُلوَّث بالوحل وآثار الأقدام، كلها مُبلَّل، مُثلَّج. كان أحدها «شغف الأرض»، ذلك العنوان الجيد الذي أُعيد نشره بعد أعوام.

منذ بضعة أشهر، سنحَت لي أنا وجمع من الأصدقاء فرصةٌ لزيارة ذلك البيت الذي سكنه الشاعر بيثنتي أليكساندري حتى فارق الحياة. اليوم صار البيت خاويًا، منعزلًا، حافلًا بالأشباح، ولكنه ما زال محتفظًا بآثار الكتب: الجدران العارية والنوافذ

الموصدة المخلخلة في حجرة لم تغد مأهولة، كانت مكتبةً في ما مضى، عدنا منها بقطعة صغيرة من الأرضية الخشبية، اضطرّ العاملون إلى إزالتها لإصلاح عطل في أحد مواسير البيت، فاحتفظنا بها وكأنها أثر مُقدّس علماني.

ولقد حدّثني الكاتب الإسباني أرتورو بيريث ريبيرتي عن مكتبة سارايفو التي قصفها الجيش الصربي البوسني بالقنابل الحارقة ليلة الخامس والعشرين من أغسطس عام ١٩٩٢. حيث ظلّت جمرات الحريق مُتّقدةً، تتصاعد منها الأدخنة، طوال أيام، بينما غمرَت المدينة أمطارٌ من السخام. «الفراشات السوداء»، هكذا سمّي رماد الكتب والمخطوطات المحترقة، التي لم يُعرَف لها عدد. يقدّرها البعض بستمئة ألف كتاب ومخطوط، بينما تقدّرها مصادر أخرى بمليون ونصف.

ولقد احتفظ بيريث ريبيرتي في مكتبته باثنين من تلك الكتب ذات الأوراق المحترقة والدفات المسودّة بفعل الدخان، المطبوعة بآثار الرطوبة والتراب والأقدام، وكأنها نذور الظُّلم.

لطالما خلقَت النارُ والكتبُ أمكنةً حافلة بالهولِ والفتنةِ المَرَضية. فهذا كونراد قد حفلَت كتبه بالرماد ومواضع الحرق لأن صاحب «قلب الظلمات» كان مُدخّنًا لا يرفق بالكتب كثيرًا في أثناء القراءة. أما نابوكوف، صاحب «لوليتا» الخالد، فكاد ألّا يغدو صاحب «لوليتا» الخالد، لأنه حاول أن يضرم النار في الفصول الأولى من المخطوط في حديقة بيته: لا بدّ أن زوجته فيرا هي التي أنقذَت المخطوط من النيران.



حتى الكاتب الإسباني غونثالو تورينتي باييستير قد أضرم النار في نحو أربعمئة ورقة كان من المزمع أن تتألّف منها رواية «ناقوس وحجر»، غير أنه اتّخذها حطبًا للمدفئة خلال شتاء قارس البرودة، في بيته بألباني، في الولايات المتحدة، حيث درّس الأدبَ الإسباني.

أما الكاتب الإنجليزي مالكوم لوري، فكاد أن يفقد مخطوط كتاب «تحت البركان» حين اشتعلَت حجرةٌ بمنزله، في ما يبدو أنه حادث عارض. بينما عكفَت السلطات على إحراق طبعات «يوليسيس» المختلفة، إلى حدّ جعل جويس يقول إنه يأمل أن يمرّ بمحرقة المطهر الصغرى مرورًا سريعًا بعد كل هذه النيران.

وفي مايو من عام ١٩٦١، أتي حريقٌ شره على بيت الكاتب الإنجليزي ألدوس هكسلي كاملًا، في تلال هوليوود، فالتهم كتبه كلها تقريبًا، وأودى بقدر هائل وجدير بالاهتمام من المراسلات ومخطوطات الأعمال الكاملة (باستثناء مخطوط «جزيرة» الذي عمل على إعداده آنذاك). وبسبب أهواء النيران العصية على التفسير، نجَت آلة الكمان الخاصة بزوجته لاورا من الحريق من دون أن يمسّها أذى، تلك الآلة التي كانت من صنع غوارنيري في كريمونا عام ١٧٠٧.

أما مكتبة أوكتافيو باث، فلقد لقيَت مصيرًا مفجعًا. إذ تسبَّب ماس كهربائي في اندلاع الحريق الذي ترك جزءًا كبيرًا من مكتبة أوكتافيو باث رمادًا، خلال أعياد الميلاد، في عام ١٩٩٦.

«تذهب الكتب كما يرحل الأصدقاء»، هكذا قال الشاعر المكسيكي أوكتافيو باث للصحافيين والدموع في عينَيه بعد أيام. لم تأتِ ألسنة اللهب على كتب الأصدقاء والمؤلِّفين الذين يشعر نحوهم بالتقدير فحسب، بل إنها التهمَت فوق ذلك الكتب التي ورثها عن جده إرينيو، والكتب التي اقتناها في طور الشباب، وكثيرًا من طبعاته الأولى في المكسيك أيضًا...

وإذا بدفَّات الكتب ونسخ لوحات هوبر ومونك ولوفيس كورينث تغدو رمادًا تحت وطأة النيران. في كواوتيموك، هناك حيث كان يسكن أوكتافيو باث، مضَت ألسنة اللهب تداعب العناوين والحروف المطبوعة بشراسة: «ليس لدى الكولونيل من يكاتبه»، «بستان الكرز»، «النفوس الميتة»، «الغريب»... ثم تسلَّلَت النار إلى جوف الكتب، ومضَت تحرقها ابتداءً بالعبارات الأولى، فاحترقَت «آليس في بلاد العجائب»: **«بدأت آليس تتململ من البقاء جالسةً برفقة أختها على ضفة النهر»**. واحترقَت «مئة عام من العزلة»: **«بعد أعوام طوال، وأمام فصيلة الإعدام، سوف يتذكّر أوريليانو بويندِيا ذلك المساء البعيد عندما أخذه أبوه ليتعرَّف بالجليد...»**. واحترق «التحوُّل»: **«استيقظ غريغور سامسا ذات صباح، إثر أحلام مضطربة، وإذا هو يجد نفسه وقد تحوَّل إلى حشرة عملاقة، في سريره»**. واحترق «موبي ديك» لميلفل: **«ادعوني إسماعيل»**. واحترق «الأمير الصغير»: **«وأنا في السادسة من عمري، رأيث صورةً**

**رائعة...»**. واحترق «البارون ساكن الأشجار»: **«في الخامس عشر من يونيو عام ١٧٦٧، جلس أخي كوزيمو بيوفاسكو دي روندو وسطنا للمرة الأخيرة»**.

لم يتمكّن أوكتافيو باث مِن تجاوز الحريق الذي أتى على كتبه قطّ، إذ لم يقتصر الحريق على القصص والشخصيات والأمكنة، بل إنه قد التهم الإهداءات والملاحظات المكتوبة في الهوامش والأخطاء الإملائية المُصحَّحة بخطّ اليد أيضًا. كما احترقَت الأمسيات المنيرة التي أمضاها في القراءة، ورائحة الورق، وترتيب الرفوف، واللمسات التي تركها الأصدقاء على الكتب حين أعارهم إياها.

يسألني الناس أحيانًا: أي كتاب أُنقذُ لو ضربَت بيتي كارثةٌ، كالفيضان أو الحريق؟ الأرجح أنني سوف أختار نسخةً من كتاب للشاعر الإسباني أنطونيو ماتشادو، مُجلّدةً باللون الأحمر القاني، صفحاتها داكنة. منذ أعوام، ألقيتُ كلمة في صالون الكتاب القديم بمدريد. ومن عادة باعة الكتب هناك أن يقدّموا إلى صاحب الكلمة كتابًا على سبيل الهدية، فاخترتُ نسخة من «أغنيات جديدة» لماتشادو، صادرة عام ١٩٢٤، وتحمل توقيع الشاعر على الغلاف الداخلي.

ينبغي لي الاعتراف بأنني أتصفَّحه بين الحين والآخر، فيتولّد في نفسي انطباع قوي منقطع النظير كلّما رأيتُ توقيع ماتشادو، علمًا مني أن هذا الكتاب قد استقرّ بين يدَيه، وإن يكُن لثوانٍ قليلة، حتى يمهره بتوقيعه.

بعد خسارة الحرب، في الثاني والعشرين من يناير عام ١٩٣٩، رحل ماتشادو عن برشلونة برفقة أمه، وشقيقه خوسيه، وزوجة شقيقه. وفي السابع والعشرين من يناير وصلوا إلى الحدود الفرنسية، في بورتبو. بعد أن استغرقوا خمسة أيام في قطع مسافة لا تتعدى المئة وسبعين كيلومترًا. لأن الدمار على الطرق المُؤدّية إلى فرنسا قد بلغ من الشدة حدًّا أرغمهم على التخلّي عن السيارة والمضي سيرًا على الأقدام. في حقيبة السيارة، تركوا الثياب والأغراض الأقلّ ضرورةً، ومن ضمنها حقيبة صغيرة احتفظ فيها ماتشادو بدفاتره وأوراقه وكتبه وقراءاته الأخيرة. وهناك بقيَت الحقيبة، إلى جوار غطاء، فلم يعرف أحدٌ ماذا كان من أمرها قطّ.

عبروا الحدود تحت الأمطار وهم يرتعدون من شدة البرد، واختلطوا بآلاف

اللاجئين السائرين على الأقدام كما لو أنهم كتلة لا هيئة لها، داكنة، صامتة. أحسّوا في ظهورهم بيقين المنفى قارس البرودة. كان ماتشادو يبلغ من العمر ثلاثة وستين عامًا، ويعاني من أمراض القلب والربو. أما أمه، التي بلغَت من العمر أربعة وثمانين عامًا آنذاك، فمضَت تسير بخطى ثقيلة إلى جواره، بجسدها الضئيل المنهك، حتى كاد الشقيقان يُضطرّان إلى رفعها عن الأرض رفعًا. وحين التقاهم الكاتب كوربوس بارغا مصادفةً، حملها بين ذراعَيه، فتأكّد له أنها خفيفة كالطفلة الصغيرة. «هل نصل إلى إشبيلية قريبًا؟»، سألَته في ما يشبه الهمس، ناعسةً.

وصلوا إلى كوليور في الثامن والعشرين من يناير، فنزلوا في فندق بونيول-كينتانا، حيث تمكّنوا من النوم في الفراش أخيرًا، وتذوّقوا طعم الراحة لأول مرة منذ ستة أيام.

لم يدرك أحد السبب الذي جعل الأخوَين، الودودَين المُهذّبَين، لا يتناولان العشاء معًا أبدًا. كان أولهما ينزل برفقة الأم، ثم يستأذن صاعدًا إلى الحجرة بعد قليل. وما هي إلّا دقائق حتى ينزل الآخر. إذ لم تكُن لديهما إلّا سترة واحدة، ولم يبدُ لأحدهما من اللائق أن يتناولا العشاء بثياب غير مناسبة.

فارق أنطونيو ماتشادو الحياة في الثاني والعشرين من فبراير. ثم تبعته أمه بعد ثلاثة أيام. وفي جيب السترة التي تقاسمها الشقيقان، عثر خوسيه ماتشادو على وريقة تحمل آخر أشعار أخيه مكتوبة بخطٍّ مرتجف، صغير، جاء فيها: **«هذه الأيام الزرقاء، وهذه الشمس، شمس الطفولة...»**.

يُحكَى عن أنطونيو ماتشادو أنه كان من عادته أن يأكل الورق، إذ يستغرق في القراءة حتى ينتزع نتفَ الأوراق من الكتاب شاردًا، في غير وعي منه، ثم يضعها في فمه ويمضغها. وهكذا، يبدو أن كتبه الأثيرة، تلك التي قرأها وأعاد قراءتها في كثير من الأحيان، قد صارت أشبه بالفراشات في النهاية.

وأخيرًا، فلطالما كانت الكتب تنطوي على ملاحظات مُدوَّنة، وحواف مطوية، وعلامات بأقلام الرصاص. كما أنها تهترئ في بعض الأحيان. لطالما حوَت الكتب شيكات مصرفية وبطاقات مراهنات وصورًا لمجهولين وقطعًا من الصحف اليومية

ووصفات قديمة وصورًا ملونة وأزهارًا هشّة. دائمًا.

وفي بعض الأحيان، قد يضمّ الكتاب ورقةً مالية غير مطوية من فئة الخمسة دولارات، شاردة، تائهة إلى غير رجعة.

---

(1) الليمبو: حيث تذهب الأرواح المحرومة من الدخول إلى الملكوت لغير ذنب اقترفته، كأرواح الأطفال غير المُعمَّدين على سبيل المثال، وفقًا لبعض العقائد المسيحية. (جميع الهوامش الواردة في الكتاب للمترجم)

(2) على وزن «الكنيسة السيكستينية» التي تقع في مقرّ البابا بالفاتيكان وتتميّز بالمعمار الفريد والجداريات التي رسمها روّاد عصر النهضة.

(3) من قصيدة للشاعر الإسباني خوسيه ثوريًا.

(4) يتلاعب غابرييل غارسيا ماركيز بالاسم، علمًا أن «خيسوس» يقابله «يسوع» بالعربية.

(5) نسبةً إلى المعتقدات الروحانية الفلسفية التي تُعرَف باسم القبلانية.

